



المركز القومى للترجمة

خوان جويتيسولو

الأربعينية

ترجمة: عبير عبد الحافظ

2510

سلسلة الإبداع القصصى

الأربعينية

رواية

تأليـف: خـوان جويتيسـولو
ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2510
- الأربعينية
- خوان جويتيسولو
- عبير محمد عبد الحافظ
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

La Cuarentena

By: Juan Goytisolo

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جويتيسولو ، خوان.
الأربعينية: رواية / تأليف خوان جويتيسولو؛ ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ .-
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة. المقـــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
(سلسة الإبداع القصصى؛ ٢٥١٠).
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٨٩٥٦٩
١ - القصص الأسبانية.
أ- عبد الحافظ، عبير محمد (مترجم).
ب - العنوان.
جـ - السلسلة.

٨٦٣

رقم الإيداع ٢٢٣٥٠ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 956- 9

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

إهــــــداء

إلى أخــي أحمــد ..

مرشـــدي الأول

شكر واجب

في البداية أوجه الشكر العميق للكاتب الإسباني خوان جويتيسولو، عن هذا العمل المبدع «الأربعينية» الذي اقترب فيه من العوالم العربية الإسلامية، وطرح رؤية استشراقية كاشفة بأعين غربية. وقبل أي شيء أستاذي أ.د. محمد أبو العطا، أحد فرسان الدراسات الإسبانية الأجلاء في مصر والوطن العربي، فترجمات أعمال الكاتب الإسباني"خوان جويتيسولو إلى العربية بالتعاون مع المركز القومي للترجمة كانت بمبادرة منه، وكذلك ترشيحي لترجمة هذا العمل القيم. وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر الشاعر أحمد الشهاوي الذي لم يدخر جهدًا في قراءة المخطوطة في صورتها النهائية.

عبير عبد الحافظ

كلمة المترجمة

جويتيسولو و«الأربعينية» والاستشراق الإسباني الجديد

1 – كونية النص السردي

يعد الكاتب الإسباني خوان جويتيسولو (برشلونة، 1931) أحد أشهر القامات الأدبية في الأدب الناطق بالإسبانية. تنوع نتاجه الأدبي ما بين الرواية، والقصة، وأدب الرحلات، والدراسات النقدية والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامه بقضايا كونية، والتعددية الثقافية، ورغبته الجادة وعمله الحثيث من أجل سبر أغوار عوالم مغايرة، والتعرف على الآخر معرفة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثل آراء النقاد ولجان التحكيم التي تناولت أعماله وارتأت التعددية والانخراط في الثقافات المتنوعة ليس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء ودروبه بينها وبين الثقافة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التي تحل فيها الثقافة الإسلامية العربية ركنًا لا يقبل النزاع. بهذا الشكل تطل كتابات جويتيسولو بسماتها الكونية السردية لتجمع بين الشرق والغرب والأيديولوجيات الدينية والفكرية بأنواعها، وهو ما تتكئ عليه بنية رواية «الأربعينية» (1991).

وهو ما أكدته لجنة جائزة «خوان رولفو» المكسيكية حين منحت جويتيسولو الجائزة الأدبية الرفيعة، وارتأت نقاط القوة في كتابته حيث: «تعمق كتابات جويتيسولو المتنوعة الحوار بين الثقافات العربية والمسيحية واليهودية (...). فمنذ صدور روايته «الكونت دون خوليان»، لم تحد أعماله عن مسارها الذي خطته في تلاحم وانسجام واضح وإبداع حر وأصيل».

2 ـ حتمية الوجود العربي الإسلامي

بهذا الشكل فإن العالم العربي الإسلامي يعكس واحدًا من الفضاءات السردية المفضلة لدى الكاتب الإسباني، الذي عرف عنه ولعه الشديد بكل ما هو عربي إسلامي في العديد من المناحي التاريخية والتراثية والأدبية والسياسية، وعلاقته المؤثرة في الغرب بشكل عام و إسبانيا على وجه التحديد، فيعمد في كتاباته إلى التركيز على هذا الجانب وإبراز اللحمة التاريخية التي رسخت التواصل والاندماج الثقافي بين إسبانيا والعرب والإسلام. ويشير جويتيسولو في كثير من الأحيان إلى الجانب العربي الإسلامي المتجذر في كيانه، وهو ما يتسبب في إثارة غضب بعض بني جلدته، فيعبر عن دهشته من تجاهل هذا الباع الثقافي في بلاده، الذي يقتصر على بعض الاهتمام المحدود من قبل المستعربين المتخصصين في بلاده، فيقول: «يتجاهل الجميع التراث العربي الإسلامي بالكامل في إسبانيا باستثناء بعض المستعربين

المتخصصيـن، ذلك على الرغم من معرفتنا بأهمية هذا العنصر في تكوين بلادنا الثقافي».

ويستكمـل جويتيسولو من هـذه البؤرة الروائيـة المسيرة التي بدأها الكاتـب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس؛ حيث كان من أوائـل الكتـاب المعاصرين فـي الأدب الناطـق بالإسبانية، الذين ألقوا الضوء علـى التراث العربي الإسلامـي، ودمجه وأسنهمه كمصدر للكتابـة الجديدة في حقبة الطليعة في أمريكا اللاتينية بشكل عـام، والأرجنتين بشكل خاص، ومن أبـرز هذا النتاج مجموعة «الألـف» التي برزت فيها عناصر سرديـة مستوحاة من ألف ليلة وليلة والقرآن، والفلسفة والتصوف الإسلامي.

فيقول في سيرته الذاتية:

«لكوني إسبانيًّا فـي قطالونيا، وفرنسيًّا في إسبانيا، وإسبانيًّا في فرنسـا، ولاتينيًّا في أمريكا، ونصرانيًّا فـي المغرب، وعربيًّا في كل الأزمنة (...) كان الصراع العائلي بين ثقافتين أول إشارة في تصوري الآن لحالة مستقبلية من الانكسارات والتوترات النشطة، التي تؤكد لي ضرورة أن أكون خارج أسوار أيديولوجيات أو نظم أو كيانات مجردة اتسمت دائماً بالانكفاء على الذات والتقوقع».

فـي هذا الصـدد، يسعى الكاتـب الإسباني في أعمالـه المتأثرة بالوجود العربي بشكل عام، وفي رواية الأربعينية بشكل خاص؛

لإقامة مقاربات أيديولوجية وموزاييك بنائي قوامه مشاهد مؤسسة على الباع الثقافي والتراث الإسباني والعربي الإسلامي، فينبذ بهذا الشكل الهيمنة الثقافية الغربية، واعتبار هويتها وتكوينها يتفوقان على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية، لتقر بحسب إدوارد سعيد «بالتفوق الغربي على التخلف الشرقي».

3ـ الأربعينية واستشراف الربيع العربي

جدير بالذكر، أن الاهتمام الذي أولاه الكاتب الإسباني لهذا الجانب تمثل جليًّا في باقة من أعماله، ارتبطت بعالمنا العربي الإسلامي، وليس بالشرق في مجمله بشكل عام، مثل العديد من المستشرقين. فترى عناوين أعماله مثل «مقبرة»، «ملوك الطوائف»، «مقاربات إلى العالم الإسباني»، «مقاربات جاودي في كابادوثيا»، «القبلة»، «مشاهد من الحرب: ساراييفو، الجزائر، فلسطين، الشيشان»، وغيرها من الأعمال..

وبالنظر إلى اهتمام الكاتب بكل ما هو عربي إسلامي يتم طرح الرؤى الثلاث التالية:

1- هل يهدف جويتيسولو من خلال الأربعينية إلى تقديم عمل استشرافي كاشف للعوالم العربية الإسلامية والصوفية؟

2- أم يهدف لابتداع تكوين روائي يستند إلى العناصر العربية كمادة وأساس أسوة بـ بورخس مثلاً؟

3-أم يسعى للجمع ما بين الغايتين في قالب واحد واستشراف مستقبل الأمة، فتصبح الأربعينية مرحلة تتنبأ بالثورة؟

بهذا الشكل يفسح الطريق لسطوة التأويل الأدبي الذي يعرفه هايدجر على أنه ليس شيئاً نفعله بل شيئاً علينا أن ندعه يحدث، فعلينا أن نفتح أنفسنا إلى النص بصورة سلبية «مخضعين أنفسنا لكينونته الملغزة التي لا تنضب، متيحين له أن يستنطقنا».

في كل الأحوال يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يومًا التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلة روحية صوفية، ينطلق منها؛ ليرصد في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعدًا إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج. يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«المراتب السبعة» لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، مرورًا بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومى، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي، إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والإسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيفيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث، وغيرهم. وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دومًا خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة؛ حيث

المساجد، والمقابـر والأضرحة، واستشـراف الأجواء السحرية الغامضة التـي تعقب الأربعينية، فضلاً عمـا للقاهرة من باع على المستوى العربي الذي تعتبر جغرافيًا وسياسيًا في مركزه.

وتدلـل الرواية على الرؤية التأملية والبصيرة النافذة التي تمكن الكاتـب الإسباني من خلالهـا من سبر أغـوار المجتمعات العربية بشـكل عام ومصر والقاهرة بشكل خاص، حتى إنه من خلال آلية قـراءة ذكية متأنيـة يصبح بالإمكان التنبؤ باقتـراب حدث جلل في هذه المجتمعات، وهو ما تمثل بعد ذلك في ثورات الربيع العربي؛ حيث تضافرت رؤية جويتيسولـو مع العديد من الكتابات الروائية المصرية، التي تنبـأت ودفعت بشكل أو بآخر من خلال الاستلهام والتصريح الروائي باقتراب موجة الاحتجاجات والتغيير في العالم العربي، حتى إنه يذكر ميدان التحرير، وتناقضات القاهرة البشرية والجغرافية واقتراب نقطة الانفجار، فيستشهد بوصف ابن بطوطة عـن المدينة (ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية)، ثـم يصفها في واقعهـا الحالى أنها مدينة «مـن دون رحمة» تنتظر وتستلهم الرحمة كطوق نجـاة بالشكل الذي يرتأيه شعبها، وكانت الثورة.

عبير محمد عبد الحافظ

القاهرة 2012

-1-

تفترض كتابة نص ما وجود شبكة من العلاقات الرقيقة، تربط ما بين العقدات التي تنسج هذه الشبكة، وتتلاحم فيها الأحداث: لحظات الحياة، الدعابات، الأسفار، المصادفات. وتمتزج القراءات المحتملة بالفانتازيا والصور، من أجل دمج هذا التشابك المؤلف من نقاط التضاد والالتقاء، وجدائل الذاكرة والومضات المباغتة، والتيارات المتعاقبة.

عنّت لي فكرة كتابة هذا النص عشيّة العام الذي سبق الحرب. كنت قد أحكمت - مسبقًا - هذا الموضوع عند التفكير في لحظة الانتقال إلى الآخرة، ودفعني إليه الرحيل المباغت لصديقة، ورغبتي في معاودة التواصل لعلاقتنا الرهيفة من خلال الحكي.

اعتدنا أن ننهل معًا من قطوف كتب ابن عربي، وميجيل آسين بالاثيوس، ونصوص متعددة تحكي قصة الإسراء والمعراج للنبي، والقصائد الصوفية، وكتاب «المرشد الروحى» لمولينوس الذي حقّقه أفضل شعرائنا الأحياء، وكانت هي تحمله في اليوم الذي غابت فيه عن ناظري.

وشكّلت الإشارات المرجعية للصوفي أبي العباس المرسي، المعلم الأكبر، وخاتم الأولياء إلى عين الخيال والمملكة الوسيطة، التي تحضر بها الأرواح حين تخرج من قبورها النواة الأولى لعمل

فرض وجوده في نفسي، بشكل قاطع، حين قرأت هذه السطور التي سأتلوها:

«وحين تطير الأرواح إلى العالم الوسيطي أو البرزخ، تواصل الحضور في أجسادها، وتصير هذه إلى صورة ناعمة مثل التي يرى المرء نفسه عليها في الأحلام. فالعالم الآخر ما هو إلا مقر تتبدل فيه الأشكال على الدوام، على النحو نفسه في الأفكار المارقة في الأبعاد الداخلية له».

وفي اللحظة التي تأهبت فيها لأبدأ تأليف الكتاب في صورته المادية، توفيت. وبعد الوقت القصير الذي عبرت خلاله إلى اللانهاية، انطلقت من نفسي، وأدركت على الفور كينونة الخفة والسيولة.

تطلعت إلى نفسي من الخارج، أصم وأعمى، بلا حماس، بلا شعور، محاطًا باهتمام ذويي والحزن الصامت لزوجتي. لبثت لبرهة في حجرتي، محاولاً ألا أقاطع برخاوة وجودي التحركات التعسة، وانتظرت وصول المغسّل لأتيقن من أنه يقوم بالشعائر وفقًا لوصيتي الأخيرة. وعلى الرغم من أن مفهوم الزمن يتلاشى في النقطة الواصلة ما بين العالمين، أذكر أنني قمت - ذهنيًا - بتنظيم نص هذا الكتاب وصف صفحاته خلال الفترة التي تهيم فيها الأرواح في فترة الأربعينية.

-2-

وأيضًا هناك؟

تمكنت النغمات الأولـى للكونشرتو من الاستيلاء بخفة ونعومة على الأجواء المحيطة بألفة مُترعة يشوبها الغموض.

أكنـت أعبر بهو الفنـدق الشاسـع؟ أكنت أصعـد بالفعل في هذا المصعـد بهذه السرعة؟ أكنت أطير على ارتفاع 9 آلاف متر وعلى متن طائـرة تابعة للخطـوط الجويـة التركية، مثلما حـدث قبلاً، وأذكره جيدًا، خلال رحلة طيران داخلي ما بين مدينتي إرزوروم وأنقـرة؟ هل انبعثت هـذه الأصوات من أجهـزة مكبرة للصوت، خُبئت ببراعة ضمـن تصميم سياحي وظيفي، أم هي العلبة المبطنة بنسيج ناعـم التي تحمل الزبائـن الصامتين المهذبيـن، ثم تجعلهم يهبطـون بعد ذلـك؟ أم هو اصطفـاف مقاعد الطائـرة في لحظات التوتر التـي تسبق إقلاع نعش ما في هذه الطائرة أو هبوطه؟ كيف يمكـن تفسير هذه النغمات الدقيقـة التي بدت كأنها تنبعث من أماكن مبهمة بـلا نهاية من هذا الفضـاء الخاص بعالـم الأحلام، ضبابي وغير حقيقي؟ ربما تكون قد انبعثت من بحر سحيق بلا ضفاف يعكر تأمله النظـر! أم تكون أثرًا مشعًا من مسرح الأضواء، ومضات، بريق، شرارات، مع إخفاء التقلبات غير القابلة للكشف؟

أو لعلها من أصل ضوئي صافٍ، مثل الهالة التي كانت تحيط بها حين تغمرها خيوط الضــوء المصبوغة المترعة، لتفحص باهتمام ساكن الجبال الوعرة الشاحبة، ذاتها القمم التي تستقر فوقها السحب والسماء الصافية الوادعة كأنها عمامات، فيبدو سموها الخالص.

قالت: لكن لم يكــن هناك مصاعد أو فنادق، أو حتى طائرات. لــو كانت موجــودة بالفعل لاصطدما بها فــي طريقهما. على بقائها هناك طوال هــذه المدة، لم تلمح طائرة أو تسمع أزيزها، بالرغم من مراقبتها الدائمة .

علـت وجهها ابتسامة بينما كانــت تتحدث، مثل تلك الحقبة التي اعتادت فيهــا أن تتردد بانتظام على الأستوديــو ومعها النصوص منسوخــة على الآلة الكاتبة، وكمــا اعتادت كانت تبدو على وجهها تلــك النظرة حين تخــرج من حقيبتهــا علبة السجائــر «جولويزيز بلــوز»، فتشعل سيجارة، وتبحث بعصبيــة بادية بين أكوام الكتب المتراكمة والمجلات عن منفضة سجائر، عادة لم تتخلص منها في أثناء حديثنا، على الرغــم من وضوح الأمر، فلم تكن هناك حقيبة ولا تبغ ولا ولاعة، لكن يبدو أنها كانت خاضعة لاصطناع ملامح وحركات جوفاء، أو الانصياع لعادة تعرفها ببديهتها، وإن لم تعد ذات نفع الآن.

من أين جاءت يا تــرى هذه النوتة الموسيقية كثيفة الألحان لهذا الكونشرتو، الذي انسابــت ألحانه في عالمه السابق؛ كأنها الوحيدة

من نوعها، فــي تناغم محكم ما بين الشقاء والحنين؟ أكان الصوت القاســي للجيتار الذي يعزفــه الأعمى؟ أم اللحــن الممزق لعازف الناي في جذوة نشوته البهيجة.

حدق كل منهمــا بالآخر، تقاسما الاضطــراب الذي شعرا به، منبهرين بالبريق المتنامي للفلك الــذي يتحركان فيه، مشعًّا يفيض نــوره منسكبًا عليهما، يغمرهما، مثله مثل الأشعة السينية، يخترق كيانهما وعظامهمــا، فيبدو أنهما منبهران بالبريق والفيض الكثيف الذي يشع بهما جسداهما أثناء خلوة مباغتة وتلقائية مع النفس.

قالــت إنها لم تتفاجأ حين رأته يصل، كان فراقهما قاسيا. تنبأت بغموضــ أن علاقتهما لم تنقطــع. أرادت أن تخبره بشيء ما على عجل، ولم تستطع، ما حدث ببساطة أنه قد تأجل بعض الوقت.

والآن كل شــيء سهل ويسير، بالرغم من أن الأحزان السابقة كانت تدفعها إلــى البحث في الدخان عن أي دعم، وإن كان هينًا. كانت قريبة منه وفي الوقت نفسه بعيدة، كأنها غارقة في حلم آخر، إلا أنــه يتركها ساكنة، تشعر بخــواء، بالرغم من عاطفته الشحيحة غير الكافية.

هل تسبب الندم والعاطفة التي جانبت اللقاء بعد انقطاع مفاجئ، لــم تستوعبه، في جعــل دموعها تفيض في عينيهــا الجافيتين، تلك

الدموع التي غاصت في ذاك الهجران الداخلي، وإن كان متجذرًا من أثر إيمان راسخ، بمنأى عن التوبة والألم؟

في نصف الدائرة الرمزي، ذاك المكان الذي تلتقي فيه الأطياف الصديقة الأليفة منذ أزمان سحيقة، وصار تدريجيًّا مثل الصحراء نتيجة للخراب والوباء وكبر السن. لماذا قابلها هي بالذات، ولم يلتق بمسافر أخر ممن ولجوا حديثًا هذا العالم الرهيف؟ ألم تكن تحتاج في موضعها هذا إلى دواء ناجع، بدلاً من مسكنات وحسب؟

ما الطرق التي دلتها على نفسها، كأنها عادت إلى مكانها الأثير، عبر هذا المجال الضبابي الخفيف غير المحدود؟ أهو التلاحم القادر على استدعاء الكونشرتو أم هي علامة مطمورة أكثر حميمية؟

للمرة الأولى، تأتي إليه من دون أن تكون بحاجة إلى استشارته بأمر ما، أو للاستفادة من معرفته، التي اعتاد أن يطلق عليها بسخرية معرفة عوراء، شعر أنه بعيد عنها وعن الملمس الناعم لتفاصيل جسدها.

هناك ستكون قادرًا على الاستفادة من خبرتهما المحتملة، والحنكة المكثفة التي حولت الذهول المبدئي لخفتها إلى حالة من الغبطة.

كانت تحادثه وقد بدا وجهها رقيقًا ناعمًا، مثل وجه شخص لا يسرف في الأمور الظاهرية، ويظل هادئًا في أعماق نفسه. شعرها

الخفيف، وعيناها الزرقاوان والغمازتان اللتان لا تخطئهما العين، حين تبتسم برقة وشيء من الخفر.

جعلا يصفقان ويلهوان بينما يستمعان للكونشرتو.

البرق والبريق المتقطع النابض يتزايد ضوؤهما الكثيف في سماء عليا، حيث لا شروق ولا غروب، لا يمين ولا يسار، لا علو ولا دنو، أحاطت بهما سحب في شكل خيوط، سائلة أم كثيفة، لم يعرفا أهو ذاك السحاب الرقيق، أم المتراكم، أهي غيوم أم سديم؟

أكان كل هذا شبيهًا بالماضي، مثلما زعمتُ؟ أم أن الأمر محض غواية أم حيلة ولهو بالحواس؟

شرعا يسيران متشابكي الأيدي. يتبقى لك أربعون يومًا، قالت له: بعدها يتغير مقرك، ومن يعلم هل سنرى بعضنا البعض مرة أخرى؟ سأرشدك وأجعلك ترى ما رأيته أنا منذ أن ابتعدت عن كل ما هو محسوس بينما أرتقي درجات السلم. اصغَ للموسيقى، ونغماتها الحزينة النافذة. استبدلوا بجيتار الأعمى صوت الناي الذي يأسرك ويعزلك عما حولك.

لا تخطط لشيء، لا تخطُ بقدمك. ألم تخبرني أنك أهديت زوجتك في لقائكما الأول أسطوانة لـ «ميلز دافيز» عنوانها «كونشرتو أرانخويث»؟

-3-

أطللت برأسك، أو بما خلت أنه رأسك، من دون أن تتمكن من التيقـن من هذا الظن بالنظر إلى مـرآة تغيثك، فتطلعت إلى المشهد القاسـي لأمم بأكملهـا، آلاف وآلاف المخلوقات الغريرة العمياء، الهاربـة مـن أراضـ متكلسـة وحجرية، وسـط مئـات الغابات والأنهـار الجافـة. أكان تهديـدًا مبدئيًا لألفية مشئومـة، من شأنها تشتيـت الشعوب، في صخب مبهم ملتبس، في كل الاتجاهات التي تهـب فيها الرياح؟ هل كانوا يبحثون عن ملاذ في ذاك البحر الذي تكتنفـه الغياهب الكثيفة المتكدسة، هربًا من جهنم الشرهة الحارقة، السلاح النووي أو الحرب الكيميائية؟

تقدمت بخطـى حثيثة عبـر المشهد الخرب ومصابيـح السيارة التـي كنـت تستقلها تكشف الأشبـاح والظلال البائسـة التي حجبت عنها الرؤية، تتحسس طريقها في الظلام، وبأيديهم زجاجات من الشراب الرخيص، بينما تتوهج جذوة الرعب الرابضة في مقلات أعينهم.

إلي أين كانوا ذاهبين، وممن كانوا يهربون؟

هـل تحققت تهديدات الأجساد الرخوة، هـذه الأجساد المائعة، المدن بأطلالهـا، الأعضاء المبتورة لعـدد لا يحصى من الضحايا

المتبعثـرة في بحور من الدمـاء؟ أم أن المسألـة تتعلق بحشود من الممسوسين الذين لاذوا بالفرار خوفًا من العقاب الوشيك؟ قالت له كأنهـا تقرأ أفكاره: إن هؤلاء يجولـون الأرض ليمحوا مثلهم العليا الميتة وعقائدهم المتعفنة.

كانـت السيارة قديمة من طـراز (DKW) يعـود تاريخها إلى طفولتـك، ربما تكون لادا متهالكة وقذرة، تتحرك فيما يبدو بحذر ومن تلقاء ذاتها كيفما اتفق.

مجموعـات مـن العصابات الثملـة، أفرادها غزيـرو الشعر، ينبثقـون مـن الظـلام، فيصبون علـى كـم اللعنات بلغـة بدائية، تعبيراتها غامضة، ينطقـون بالأفعال في صيغة المصدر من دون تصريفهـا. بعضهـم كان يجري مثل الأرانـب البرية المذعورة، كأنهـا تفاجأت خـلال جولتها الليليـة، أو مثل الهـوام التي تقترب من اللهب فتحـرق. عملت عندئذ علـى أن تتجنبهم، فكانت ترسم خطوطًـا علـى الإسفلت الذي بدت فيه حفائـر غائرة مثل علامات الجديري، بسرعة شديدة مصحوبة بترقب.

انزلقـت السيارة في طريقهـا بجدارة. على الرغـم من قدمها ومحركها المتهالك، كانـت قادرة بأعجوبة على تلافي مجموعات من الأشخاص الهائمين المحملين بكومات، وسلالاتهم المنسوخة متراكبة مثل عناقيد العنب الهلوع.

تريـن هجرات متتابعة، وجثثًا أخرجـت من أجداثها بكل حقد، وتماثيـل ضخمة انتزعت مـن قواعدها وتم تحطيمهـا بمطرقات، وكتبًـا عقائدية وسياسية أساسية ألقيت فـي النار، وحرق العظام، وشـوارع وميادين تنزع عنهـا أسماؤها، وأجسـاداً مكبلة تتحول لرمـاد، ومنازل متهدمـة باسم سجـل العار المشيـن، وشخوصاً هامـدة، ذابلـة، تالفـة، فوضـى، وفرقة مـن الممثليـن الجائلين المحتاليـن. وقطعاناً ترعاها الذئاب بدلاًمن الرعاة، لا مكان لذرة من الحقيقة، لا يوجد سوى كومات من التراب، أو جبال هشة.

هـل اقتربا بعد ذلـك من رؤيـة الأسطح الحلزونيـة؟ سماوات فلكية، دوائر الزهرة الصوفية، العوالم القمرية المنشقة من الفضيلة العارفة التي تضيء وتلهب الشمس الحقيقية؟ أم أن الأمر مثلما قرأ قبل العبور، محض خيالات و أكاذيب؟

لا تفقد صبرك، لا تكن عجولاً. على الرغم من أنني سبقتك إلى الخبرة والإدراك من دون حواس، فلم أر شيئًا بعيني رأسي ولا حتـى في برامـج الحلقـات التليفزيونية. هـؤلاء البشر يكتشفون- مثلمـا أعلن مواطـن لك قبل أن يجـيء إلى هنا بكثيـر- أنها ليست هذه النمـاذج الرافضة للمجتمـع، عديمة الأخـلاق، الإجرامية، الهائمـة، حثالة المجتمع الهمجيـة، مثلما كانـت تصورهم أجهزة الدعايـة الخاصـة بالأنظمـة الحاكمة، بـل هم مريـدون آخرون

لمعلمين «يمدون الرياح بنظريات خادعة، يرمون الأحجار على أنهــا خبز ، والأوراق على أنها فاكهة ، وبدلاً من الطعام الحقيقي ، يطرحــون أديمًــا قاسيًا مختلطًــا بالعسل المسمــم». يحرقون الآن بغضــب الأصنام التي عبدوها ، ويلعنــون التضحية التي بذلوها بلا طائل لأجيال طويلة متعاقبة.

غالبــك النوم بينما تقود السيــارة ، ورأيت متجــرًا هائلاً مكتظًا باللوحــات ، والصــور والتماثيــل وأنصــاف التماثيــل ، : «للدليل المرشــد» و«المنقذ» و«أبــي الأرض» ، هيئة صلبــة ، ذات رأس ضخــم ، وفي أشكال متعددة بكامل الأبهــة والهندام الذي استوحاه قانون يدلــل على غبائهم المفــرط كثمن قامــوا ببذله ، على صهوة جواد مرتديًا ازي جندي الدرك ، وبحوذته سيف لامع.

يشير إلى مستقبــل مشرق ، وتنطبع على محياه دلائل الصرامة والنفاذ الجديرة بشرطي ينظم سير المرور. يرتدي بذلته الرسمية تعلو رأسه قبعة طويلة ، فيوحي سمته بهيئة الساحر أو المخادع.

يرتدي بذلة «اسموكينج» ، صديري مُنَشًّى ، وياقة قميص على هيئة جناحي طائر ، مثل معلم رقص يدهن شعره بالفازلين. تزين وجهه عيناه الزرقــاوان المتأملتان ، وحاجبــاه الكثيفان مثل خبير التنويم المغناطيسي.

يبدو مثل أينشتين في معمله للبحوث العلمية، بينما يداعب فتاة مراهقة، بريئة، شقراء، باسمة، مفعمة ببهجة سماوية.

منكبًا على خريطة لميدان المعركة، يشير بإصبعه المسحور إلى نقطة ضعف قوات العدو! آلاف اللوحات المنزوعة من المكاتب والإدارات المركزية الرسمية، عدد لا نهائي من التماثيل التي أطيح بها من المتنزهات والشوارع، تماثيل نصفية، العديد من التماثيل النصفية التي أجبرت بالقوة على البقاء هامدة بلا حراك. رؤوس عظيمة كسا جفونها وأنوفها التراب، واصطفت تشغل آلاف الهكتارات في متاجر ضخمة، ومستودعات مهدمة. أنهكك كل ذلك مع التأثير المتضاعف اللانهائي لنظراتهم المتوهجة وأوضاعهم الشاذة.

تجول وسط الغابة بعض الأشباح المعروفة ما بين قواعد التماثيل الحجرية ومنصاتها، تبدو هذه مقوسة الظهر ترزح تحت وطأة المديح المتملق المداهن، ودفاعها عن حقيقة دامغة ذات أهمية كبيرة لمثل تجشؤ ذلك الفلاح الفظ الخشن الذي تصوره التماثيل. تبث مكبرات الصوت في هذا المستودع المشئوم، دون هوادة، قصائد الشعر والمديح لـ «دون خوسيه»، و«ماوريثيو»، و«لادولوروسا»، و«فيذيليو»، وفي الوقت نفسه تتظاهر تلك الأشباح، من دون طائل بالفرار منهم برفرفات متخبطة وتكتسي وجوهها بملامح الإعياء.

(أتحلم؟ أما زلت تحلم؟)

فلول من الحشرات المحتشدة، تصدر جلبة متواصلة، تمزق، تحـرق، تهدم، تحطـم، تفتت رمـوز العبقرية لـذرات، تحرق وثائق الهوية وبطاقات الأحزاب.

السيارة الـ لادا (أم أنها سيارة DKW العتيقة؟)

تتفادى من خلال حركات ملتوية مجموعة من السائرين نيامًا، فتبـدو كأنها ترتفع فوق الطريق السريع الذي تظهر وتختفي خلال عبوره، في الوقت نفسه تُمحى من فوق الأرض كأن الأمر محض سراب.

قالت له: لا تخف. لم نتحرك بعد. حتى اللحظة لم تعتد الوضع. هـذا ما جرى لـي في البدايـة، لكن بعد تعـود العيش فـي الظلام والوحـدة، خلت أنني ضائعة، وفجأة صـرت قوية وهادئة، على الرغم من أنه لم يكن لديّ أيّ أمل في هذه البهجة.

(أنتما في هذه البرجولة أو هذا الممر الريفي المعروش الملاحق للسحاب، بينما تكرر هي وبشكل آلي إشعال سيجارة لا وجود لها، تشعـر بهذه المفارقة التاريخيـة، وتبتسم لك فيما تلوح على وجهها نظرة مرحة خفيفة للتواطؤ الذي جمعكما).

انظر! انظر هذه الموشورات الزجاجية.

ستقدر من خلالها على ملاحظة نعش ضيق قوامه اللهب، قافلة من النساء والرجال العرايا جميعهم، خيطت أجفانهم بأسلاك، شجرة مقلوبة رأسًا على عقب، جذورها ضاربة في السماء فيما تتدلى فروعها صوب الأرض، حية طويلة يوازي طولها مسيرة شهر.

سيدة تحمل مظلة، ترتدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشّى بالدانتيلا والشرائط الكبيرة، تتحلى بعقود من الخرز، ميداليات وأحجار كريمة، جوارب بيضاء، حذاء ذو كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة، كانت تتجول ما بين الدرابزين المكسو بالطحالب، وأصص زهور الأرطنسية.

(من هي؟ ألم ترها قبلاً في مكان ما؟)

على حين غفلة، تدرك أنك فقدت التواصل مع من يختبرونك.

هذا الكشف ينبهك، إلا أنها تعمل على تهدئتك في اللحظة المناسبة بنظرتها المائية الرائقة.

الزمن لا يجري هنا مثلما كان يجري في الماضي؛ لذلك لن تلحظ مرور الساعات أو ما يشابه. فهناك يتحدثون عن الأيام والأشهر والسنين، بينما اللحظة هنا قد تخلد بيننا خلال المساءلة.

الأمر لن يعدو قيامهم بتشغيل الفيديو فيعيدوا للحياة فصولاً ومشاهد من ماضيك.

تختلط رؤيـة الجسر الجوي البـراق الخيالـي بمشاهد الجلبة، الرعب، وصخـب الضوضـاء، والأصـوات الحـادة، وبتساقط مستمر وبطيء لرذاذ مطر ذراته من النيران الملتهبة.

(هل كنت تحيا بينما تحتضر في ليلة الوحدة؟)

مثل شيطان أعرج وقف ثابتًا عند المنحدر الرأسي للجبل، الذي سيصبح وفقًا للأحاديث، واحدًا من حدائق الجنة، أو سيتسلق مئذنة من المآذن الملاصقة لضريح السيدة التي احترقت بالحب الصافي، تراقب المدى الشاسع الممتد، يضم القباب، المقابر، البيوت، الأركان، الزوايا، المدارس التي جلت بها منذ سنوات مضت، لتآلفها تسرقك رغبة فطرية جامحة لعشقك التجوال. غمرِ المشهد الآن ضوء القمر، فبدت عليه مسحات الجلال، والسلام والهدوء، بينما القاطنون وسط المدافن في غمار سكون مطلق متشبع بالسكون والبركة. تُرى هل تمثل جزءًا من باقة الأشباح المارقة، كالثريات المستسلمة للذكرى والحنين خلال فترة الأربعينية؟ هل تقرر السفر وتحلق معها من الجامع وشرفات القلعة صوب أديرة الدراويش بالمقطم؟

تفتتين الهواء الصحو المنعش مثل الشهاب أو الطائر، مندهشة بالخفة والرشاقة اللتين تختصين بهما، ترتفعين فوق أفنية مكسوة بالبلاطات الموشاة بالآيات، مقابر شيدت عليها الشواهد، أروقة حزينة بالقيشاني والنقوشات الكوفية. أهي غريزة رقيقة، أم هو الوجود السري لعضو مُنح ملكات التوجيه والتوازن، إلا أنه يسبب لك شعورًا عنيفًا بعدم التوازن، وثمالة منتشية لفرط السرور؟

الطيران بالقرب من المقابر المغطاة بسعف النخيل، وأطباق الحبوب وأوان فخارية تحوي ماءً، يهبك في الوقت ذاته السكون المتوجس لشخص يتزهد في فضاء مقدس خصص للخلوة الذاتية والحزن، و وعلى الرغم من ذلك، فإنه مشبع برحمة غامضة وراسخة.

إنك وحيدة، تسيرين من دون صحبته في جولتك الليلية بالمدينة الصحراوية. تجاوزت في مراحل متتابعة الجفاف الروحي، الظلمات، الكرب، المتناقضات، الكرب الدائم، القلق الداخلي والخراب المناوئ، كل هذه المراحل التي حدثك عنها «الدليل الروحي». هل أصبحت إيمانًا خالصًا بلا صورة، بلا شكل، بلا هيئة، غارقة في عدمك، عائدة إلى نواتك؟ ترى لماذا هجرك المحققان في سرداب حجري من الجرانيت مسقوف بقبة، من دون أن يكلفا نفسيهما مشقة تثبيت حجر الشاهد الذي يغطي السلم الضيق شديد الانحدار؟ هل كان ذلك سهوًا منهما، أم فعلاه عن عمد لا ختبارك؟ أم ترين أنهما أرادا منحك هدنة لإقامة الأمور وبعث الذكرى؟

كيف يتسنى لك الحديث على بعد ألفي كيلومتر، مع مجمع الأشباح من طفولتك وعائلتك؟ أم تنتزع عنها الحياة وتتحلل بغتة في العدم، أب مفقود استعاد نفسه تدريجيًا في مكانه المتواضع في

المدينـــة، جدود أشرت إليهـم، وقد سلطت عليهـم حزمة ضوئية كاشفــة. قاسية، قبل يـوم البعث المشهـود، مرتبطين في مخيلتك دائمًا ووعيك بمشاهد كنائس تزينها أرباب حجرية، وتماثيل وهمية تكسوها الجروح، عـذراوات يدمين، طقوســ باطلة، احتفالات تعميد عقيمة، أحاسيس ميتة. هل ستعود في هذه الآونة لتقلق رفاتهم وتحـرك عظامهم، وتعرض لأطياف لوحــة خربة تصور البؤس الإنساني حقد الأشقاء بعضهم لبعضــ، تلك الثمرة المريرة للبذرة التــي زرعت في الطفولة؟ أهي ذكريـات خائنة للسلام، والحب، وهناء الأمومة، وجميعها كانت تحاصر قرينك أو من صار قرينك عشيــة اليوم الذي هاجـرت فيه روحه؟ ألم تكفـر عن كل ذلك في مقهى صغير بـــ «الكاثابا»، ثمنًا زهيدًا دفعتــه مقابل قطعة صغيرة من معجــن؟ وبالرغم من ذلك، تظهر الذكريـات مجددًا، وتبذل قصـــارى جهدها لتحقق ظهورها، مثل الصــورة الباهتة في لوحها المعدنـــي الرقيق أو لفيلم خلال عمليــة التحميض، ممحوةً بلا شكل في البداية، ثم واضحــةً وجليّةً بعد ذلك ما بين كتلة الأشباح عديمة الشكل، بعد طريق طويل من الجسور المنزلقة والشاقة، والعقبات الضخمة ومنحدرات. وتطوق منــازل التكفير المتوهجة الضاربة للــون الأحمر؛ هي في عنفـوان شبابها، التقطــت لها بحب صورة جانبيــة، أو أخرى بملعب التنس وقد أمسكت بمضربها، وهو مثلما

تتذكره في الأوقات الأخيرة، تبدو عليه علامات السن، حزينا لترمله، ومرضه وتدهور مشروعاته العلمية التي أجهضت على نحو مؤلم.

ألم يعانيا أحزانًا لا توصف لدى خروجهما من مينائهما الآمن و إطلالتهما الخاطفة على بحر العالم، في إجابة لندائك؟ أهناك عتاب أبكم في عينيهما، أم شكر مفهوم ضمنًا لرغبتك في حوار أصبح مستحيلاً، بينما يتلاشيان في الضباب عائدين إلى مخدعيهما المتوازيين في مدفن العائلة القديم؟ وها قد حضرت الجدة في شرودها المحبب (أترى هل فقدت عقلها بسبب الجذب الروحاني مثلما أشار «ابن عربي»، وهي شخصية تزن الأمور، لكن بغير عقل، أما زوجها «متقوقع دائمًا يقرأ جريدة بتاريخ يعود لحصار ستالينجراد» بالرغم من ذلك فإنهما ينضمان إلى الموكب من دون أن يقوما بتوبيخك على نبش قبريهما، وعرض عظامهما على الملأ، وهو ما كان يجب أن يمكث في طي النسيان إلى يوم الرحمة النهائي. تظهر أشباحهم في ليل مدينة الأموات الصافي؛ الأضرحة التذكارية المزينة بالآيات، الشواهد المكللة بالعمامات الحجرية، القباب المتقنة، مقامات الدراويش، أبراج الحمام التي تقطنها اليمامات البيضاء، ضريح (سلطان العاشقين) مع المرسي الذي يتلو آيات الكتاب. تحلق مجردًا في السموات الساكنة، تهدهدك

رياح تبدو كأنهـا تحيي بريق النجوم المتوهج، على أرض منزل حقير، بيوت مأهولة، طريق صحراوية ضيقة، أطياف تهيم ليلاً، تنفس ثقيل، واستشعار حياة مليون ساكن لبثوا في مساكنهم شياطين أشقياء مطلوقين، مقابر الشيـوخ، بيوت حديثة الطلاء برسومات الحج إلى مكة، مآذن مرفوعة مثل حراس يحمون النائمين.

(ابتعـدتْ عنـك، ومـن دون إرشادهـا القيم، تشعريـن فجأة بالجفاف وبأنك دون حماية).

وهنـاك بعض النوبيين يرتـدون جلابيبهم البيضـاء، وقد لفوا عمائمهـم بإحـكام على رؤوسهـم بمهارة، ينصبـون بحذر وهمة فـي أحـد الشوارع سرادقًـا سيستقبـل أقارب أحـد الموتى، وبعد ساعات يودعون أربعين يومًا من الحداد، ما بين الزفرات الرهيفة ورشفات الشاي المتباعدة.

-5-

بعكس ما هـو مألوف في الأساطير، لم يكونـا شبحين أسودين لهما منظر منفر مشئوم، أو هيئة مشوهة، وصوت هادر كالرعد، وعيون تلمع في ظلمات المدافن مثل البرق المبهر.

المطرقـة! ألم يضربا بهذه المطرقة الثقيلة التي يعجز عن رفعها البشر كافة؟

إذا كانت موجودة بالفعل، فلم لم يبصرها أحد في أي مكان؟!

ألم يعـان من ضربات هذه المطرقة علـى أم رأسه سبع مرات متتاليات، حين لا تكون الإجابات مرضية؟

جرت الأمور على نحو مختلف تمامًا عما تخيلاه!

ربما لـم يضيقا عليها بالأسئلة التي تخرس لسانها، وهي مكبلة بمشاعر الذنب والهلع؟

لا، لا، هذا المشهد لا يشبه - ولو من بعيد - سجون محاكم التفتيش. فلـم يكن هناك أدوات وطـرق للتعذيب مثل الحبـال أو الإغراق في الميـاه، أو الصعق بالكهرباء، أو مغطس أو أدوات للوخز، لم يكن هنـاك سوى فضاء ضيق وكئيب، أصبح شاسعًا وبلا نهاية، وتذبذبت الكلمات فيه مثل صفير حاد، يستحيل تحديد مصدره.

كانت تراهما؟

على الأرجح لمحتهما وسط الضباب، وبعد كل اعتراف، كانت تستشعر صفاءً وهدوءًا، بعد أن شفيت من إغمائها وهمومها وقلقها.

صوت نكير كان يتردد، حادًا وصافيًا في آن واحد، بما لا يدع مجالاً لأي شيء على الرغم من رداءة مكبرات الصوت. بينما جاء صوت منكر تشوبه نبرة لاهية، كأنه مشبع بسخرية أو بمعرفة دقيقة للصغائر الإنسانية. لم يحضرا ليقرآ عليها صحيفتها أو ليخضعاها لاختبار ما.

كانا متابعين لأقوالها وأفعالها، مطلعين على كل شيء من الألف إلي الياء. حتى إنهما شقا على نفسيهما بقراءة أكوام وأكوام من النصوص وأطروحات الدكتوراه صاغها باحثون، بعضها نافذ الفكرة، والبعض الآخر شديد الجهل، ولم يغفلا قراءة النصوص السقيمة لأعدائها. ضحك منكر وقال: يا لها من أكوام لعينة. كيف لنا بعد ذلك أن نتهمها بمعتقدات خاطئة، مارقة، بغيضة، فاضحة، ذات وقع سيئ؟ وسط رتابة الأوقات البائسة الموحدة الغثة الخاوية من أي محتوى، أصبحت حياتها نصًا مكتوبًا، لكن لديها ميزة ما، ألا هي العاطفة الآثمة، والقدرة المادية على التخيل وأيضًا على الحماقة.

أكان هذا هو كل شيء؟

ماذا بالإمكان أن يقال الآن!

فحينما أنصتــت إليهما، شعرت أن أحدهمــا، بل ربما الاثنين، كان يمدهــا بنيــران ناعمة مصدرهــا شمعة، لهيــب يمنحها منتهى اللــذة، تتراقص ألسنته فــي كل مكان فتحول الانعــزال والصمت اللذين أعقبا مرحلة المرور إلى عذوبة خالصة. وماذا بعد؟

استيقظــتْ، نظرتْ إلى مشهد الفــراغ الشاسع، بدا المشهد كأن مــن يعرض الفيلــم قد أوقفه برغبتــه الشخصية، أو بنــاءً على أمر مــن رئيسه. حينها ظهر «ابن عربي»، وعرفته على الفور لحسنه الفريد الذي يشع منه، حاملاً مخطوطه وعنوانه «رسالة في شجرة الإنسان والطيور الأربعة». دعاها لكي تتبعه، رآها عاريةً، على أهبة الاستعداد، خفيفةً ونشيطةً.

خلدتْ إلى النوم مجددًا، وسمعها تهمس في أحلامها:

شربت ميراث الكمال الناصع.

(امتــد بصره عبر الميدان، فضــاء الميدان... نُطفي ومحدد، انغمس في تأمل جلبته وحركة الجماهير، تشكيلات الجماعات التي تتكون وتنحل في ذاك المحيط مثل كيانات شاردة متفككة. ترى ما عدد الأيام والأشهر و السنين التي بقي فيها منغلقًا على ذاته في هذا التأمل، يجيب عن تساؤلات أصدقائه بلا مبالاة، غارقًا في سكون ونشوة مبعثهما صمته الداخلي؟

-6-

«هذا، هـو ما كان»، قالت وهـي تنشطر عـن جسدها الساكن علـى عرض السلـم، تنهض بسعادة مشوبـة بالرضا لتوقف الألم القصيـر بضلعها الأيسر، الأزمة القلبيـة التي أودت بحياة شقيقها، واعتبـر الحدث العقاب الأزلي لعائلتهـا، انفصلت عن نفسها، عن مظهرهـا الشبابي، مرتديـةً ملابسها الرياضيـة، اعتمدت بإحدى يديهـا على درابزين السلـم، كأنها تبحث عن دعـم كيلا تسقط في لحظـة العبور، وقد تكيفت مع خفتهـا، مالكةً غير مرئية لمجموعة مـن الكتب خـلال عدة ساعـات، وللأثاث والذكريـات والصور التـي اشتملت على أرقام في حياتها، مالكـة لعديد من كتب الأدب الإسبانـي كانت بصدد ترجمتها، حتـى إن الآلة الكاتبة ما زال بها ورقة عن الشاعرة «سور خوانا أنس دي لا كروث».

تسببـت وفـاة أخي فـي شعورى بالوحـدة والعزلة، لـم أنجح في اعتياد الوضـع، كنت ألوم نفسي بقسـوة لعجزي عن الحيلولة دون وفاتـه، لكنني لم أنجح في التكهن بذلـك من خلال ذلة لسان أو بعضـ البوادر البسيطة الدالة على المرض إلى أن فارقني على هـذا النحو المباغت فسقطت في بئر حالكـة الظلام، وتحطم كياني الداخلي لجهلـي المطبق عن ذاك الكشف، مـن دون أن ألمحه أو ألحظه وكانت قد انتهت ليلة الكرب الضيق.

لم يخالجني مثل هذا الشعور في أي من مراحل الانكسار والجفاء والانعزال عن العالم، الهروب من تبدد الروح، حتى ما بين أسوار مستشفى الأمراض العقلية، لم أشعر قط بهذا الشعور: عارية، مرفوضة، محطمة، من دون سند وبعد إخفاقاتي العاطفية، بعيدًا عن ذاك الضوء البسيط الذي اعتدت رؤيته في عينيك، والرغبة الملحة في الشراب، والوصول إلى لحظة الإشراق سعيًا نحو نشوة الثمالة المبتغاة، وصلت بعد ذلك إلى شقتك، وأنا ثملة بعض الشيء. لم أدرك في ذاك الحين أن نشوة النبيذ كانت تعلن عن بحثي العشوائي عن حالة النشوة الصافية. واكتشفت الأمر بفضلك أنت، من خلال الصوفيين وعالمهم الروحي. عجزت عن الإقلاع عن التدخين، عن ملء مطفآت السجائر في منزلك وتعبئة حجرتك بالدخان، كنت على دراية أنك تقدم لي الشراب بينما تشعر بحزن، خائفًا، ولديك الحق، في أن يغيب عقلي، وأن أنفصل عن الحياة وجوانبها الاجتماعية.

كنت أجهل أن أخي قد سبقني ببساطة إلى الخفة. غرقت في الألم، شعرت بدوران الهاوية. قلت لك: لا أستطيع مواصلة عملي معك. ابحث عن شخص آخر أكثر ملاءمة واتزانًا. ذاك المساء، حينما شعرت بمساعدتك، رأيتك في منامي تمد لي شمعة، تسطع في جميع الأرجاء، نارًا ناعمة، أتلقاها منك بسعادة، كأنها طعام محلي قوي المذاق.

خـلال الحوار الذي تبادلنـاه، شق عليّ التمييـز بين من يسأل ومن يجيـب، من صوت «يقـول»، ومن صوت «أقـول»، مَنْ يتحـدث بصيغة «هو» ومَـنْ يتحدث بصيغة «هـى». التفريق بين الجنسيـن، ألا تلغي تلك الفروق في إطار هذه الخفة؟ وماذا سنفعل بقواعد النحو؟ لماذا نلجأ إلى ضمير «هو»، وليس «هي»؟

جعلـت تضحك وتضحك من جديد، بينمـا تلهو بالسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصـورة، تطالعك من مشارف السحاب، على مـرأى من الأشباح التي تنتظر بالمثل نهايـة الأربعينية، مطمئنين تملؤهم الثقة في العفو والرجاء.

قالت:

أترى جيـدًا؟. إذا كانت الرؤية مشوشـة أو مضطربة بإمكانك ضبطها عن بعد بواسطة الجهاز المبرمج.

في عتمة المقبرة في أعقاب صعودك إلى درجات سلم العري، متجهًا صـوب السلام الميمون، بمنأى عـن خير الزمان والمكان والزمـن، ومن دون أن تلتفت إلى مـا تفعله، من دون أن تدرك هـل أنت مقيد أم لا، أقادر على الحركة والفعل أم لا، من دون أن تلتفت أو تهتم لتعليمات كتاب «الدليل» فيما يتعلق بمواد الإحساس، تستقبـل بسلبية تدفـق الصور القاسية على الشاشـة، ساكنًا في حال تجمع ما بين الهدوء والصمت.

تتأمل المشاهد واحدًا تلو الآخر بالترتيب.

تنظـر إلى رجال ونساء تقطعت شفاههـم عند جوانبها، أصيبت عيونهـم وآذانهم بسهام حادة، علقوا مـن أرجلهم في اتجاه عكسي وتدلت رؤوسهم نحو الأرض، ولدغتهم الأفاعي في كل مكان.

تنظر إلى الجلاد، رجل يرفع بين يديه صخرةً ضخمةً يسحق بها جمجمـة شخص بائس، ومن دون أن يمهله دقيقة واحدة ليرتاح،

يباغـت رأسه بالضرب مرة أخرى بعد أن تتشكل بمعجزة مجددًا، مواصلاً تعذيبه الفظ الصارم.

أمواج نهـر الدماء تغلي ويسبح بها منبـوذاً محروماً من رحمة الله، يجاهد؛ كـي يصل إلى ضفة النهر، حيـث يقف جلاده يقذف بجمـرات ملتهبة في فمه وهـو متقطع الأنفاس، ويأمره بمعاودة السباحة في هذا التيار لمواصلة العذاب.

موقـد أنبوبي الشـكل، يتأجج في نيرانه رجـال ونساء عرايا، يصعدون ويهبطون وسط برادة المعادن المشتعلة، وفجأة يهبطون للقاع، وهكذا دواليك، وسط الصراخ والأنين وصيحات الرعب.

مخلوقـات متورمة، متشنجـة، يتقيؤون مـن دون توقف من عيونهـم وأنوفهم وأفواههم وآذانهم، ألسنة اللهب الملتوية تخترقهم من الدبر.

محيـط هائل مشتعلـة نيرانه، ينقسـم إلى سبعين بحـرًا، على شاطئ كل منها ترتفع مدينة متوهجة، ضارب لونها إلى البنفسجي، مؤلفـة من سبعين ألف بيت، تضم بدورها سبعين ألف نعش تشتعل بها النيران، يختلط فيها رجال ونساء يتضرعون طلبًا للرحمة فيما تلدغهم الثعابين والعقارب.

أترى هـي صور للوحـات «بوسكـو» أم أنها نسـخ ملونة من

أعمال «دوري»، كنت تتأملها مرتعبًا وأنت محض طفل صغير؟ ألم يستلهم الفنان الفلورنسي، بجرأة، رؤى داخلية مستوحاةً من «كتاب المعراج» في أثناء تأليفه كتاب «الكوميديا الإلهية»؟

قالت: إذا كان الموضوع يضجرك أو يشعرك بالخوف فبإمكانك تغيير القناة.

إلا أن البرنامج كلما انتهى يعاد من جديد، ولا تستطيع معرفة السبب أهو أمر محتوم بسبب عيب تقني؟ فكلما انتهى العرض يبدأ مرة ثانية، فتظهر على الشاشة خلال تحرك الظل الناعم، صور المعذبين طالبين المغفرة، بشفاههم المبتورة ومقلاة أعينهم وقد اخترقتها الأسهم، معلقين من رقابهم، لدغتهم الثعابين في كل مكان.

قالت المرأة حاملة المظلة بالفرنسية:

Oh, Comme ils sont emmerdants! Ils ne peuvent pas s’offrir comme tout le monde une antenne parabolique?[1]

يبدو كأنها اختفت، من دون أن تحاول إشعال سيجارتها المتخيلة، أو حتى تستحثك وتمنحك بصيص ضوء عينيها الملونة

(1) يا لهم من «مقززين» إنهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم كالجميع طبقًا هوائيًا. (المترجمة)

كملجأ و مــلاذ. انطباعات ما بين العتمة والصفاء، التخمة والرقة، تسبق جميعها اقتحام صور جديــدة لحراس غلاظ، نظرات تطلق ألسنــة لهب، مدن تلتهمهــا نيران داخلية، بيــوت للتطهر والألم، شكلت المشهد رغبة جامحة تهذي في هيئتها المتماثلة.

هوة في شكل خادع أو جزع شجرة صنوبر مقلوبة تنحدر صوب مركــز الأرض؛ من خلال تسعة مستويــات أو طوابق دائرية مثل العقاب والسجــن وفقًا لدرجات الأرواح المنحرفــة الخبيثة، قيود ناريــة ملتحمة بتكتلات الضحايا، أفاعٍ تتسلل إلى الأفواه، وتخرج مــن فتحات الشرج بعد تدمير الأمعــاء، مخلوقات بلا عيون تسبح في أنهــار الكبريت، رجــال بطونهم مكتظة بالزواحــف، ونساء معلقات من شعورهن أو أثدائهن في عقافات ملتهبة كالجمر.

دواب متوحشة لها رؤوس كلاب وأجساد خنازير، يعانون من عطش رهيب، فرض عليهم احتساء أكواب من المعدن المنصهر، ألسنــة قطعت بمقصات متوهجة، تخترقهم سهام وتضربهم أسواط من نــار، أرواح تعتصر وتدمر من قبل مــلاك متمرد يصيح من الألم فوق مرقده على مشواة.

وفجأة وبالتعليــق باللغة الإنجليزية تظهر، صــورة فتاة شقراء ذات ابتسامة ساحرة وصدر مثير وبشرة لامعة كالصدف، تشطف شعرها الغزير تحت ماء الدوش، تبدو عليها سعادة نرجسية غامرة

تـكاد تصل بها إلى ذروة النشوة الجنسيـة، وذلك بفضل الخواص التجميلية التي يوفرها الشامبو، ذو العلامة التجارية العالمية، الذي تستخدمه.

هل قطعوا البرنامج التليفزيوني بهذا الإعلان الدعائي؟

وبينمـا تتساءل، مرتبـكًا، عمـا إذا كانت العلامـات التجارية العالميـة توجد في مقـرك الجديد، تهيأ لك كأنـك تسمع في الظلمة الحالكة ضحكة منكر الساخرة.

-8-

كان فـي مركزهـا، المنـزل والمتعة فـي أحشاء عالـم تنبض فيـه الحياة، يستدعي فـي الوقت نفسه أصواتًـا وروائح وملامح، وعلاقات؛ مـذاق الكبيبة وأوعية حساء الحريـرة، مستوعبًا تمامًا توحد أجزاء جسده وتنوعها، لمساواته الأساسية مع كتلة الأجساد، وأساس هدفه: الانجذاب، الرحمة والرغبة. مجتمع المصير الذي تتولاه في عري الميلاد ولحظة العبور، والعناقيد البشرية بجمالها الأخاذ، والبريق الذي يختفي بغتة.

أكانـت الشيخوخـة أم الإرهـاق هـو ما أبعـده شيئًـا فشيئًا عن منطقـة الأرض المستنفرة، أم ترى أنـه الإيحاء الحزين باستنفاده حيويتـه الأصيلة الصافية في الكتابة؟ الحـق أنه غادر في الحلقات الدائرية ذاتها، ترك بدويتـه الغريزية؛ لكي يقف عند زاوية قرب أحـد المقاهي ليترصد المشهد من هناك. هـل أراد أن يضع مسافة بينـه وبين الآخريـن؟ أم يفرض مسافة تباعد ما بيـن ذاته ونفسه؟ أم أنـه اليقين المفاجئ بعدم ثباته، أيضًـا الوهن الشديد لما يشعر به كأنه شيء قريب، في حين أنـه بعيد وصعب المنال؟ أصبح مجرد شخص يتأمل ما حوله من إعصار الجماهير السائرة، المتدفق بين البائعيـن الجائلين، النصبـات المظللة، المطابـخ المتنقلة، البسط البلاستيكية وعليها البضائع الكثيرة المتنوعة. هل هذه الأجواء التي ألهمتـه شعلتها المضيئـة قبلاً قدر لها أيضًا الاختفـاء والزوال؟ هل

سيمحي مسرح الأضواء والظلال والكوميديا الخصب الذي طالما غذى روحــه وحياته وروحه الإبداعية الشرهــة؟ هل سيمحي كل ذلك بلا رحمة؟

تقدم خطوة أخرى، عرج إلى منزله المجاور للميدان، بناظريه مــن شرفة سطح المنزل، ألقى نظــرة فاحصة يتأمل الكتلة البشرية الملتصقة، فما زالت الحياة تنبض، ولم يحل الإفناء والفناء.

يصــوب منظــاره الموشور على رأســ الصــاروخ الأملس، وعلــى الدائرة المتحلقة حول «الشرقــاوي» وحمائمه المستأنسة. ظلال كثيرة تمدها سحب هائمــة، تدفعها نسمات رقيقة نحو ظلال أواخر الجوالين، أطفال متقافــزون، أطباء ألهموا العلوم الربانية الفطريــة، المقرئــون يتلــون التعزيمــات، البصــارون، الرواة المنشدون، حواة الثعابين والراقصــون المبتسمون. خيط رهيف كان يربــط بعالم الأشبــاح البعيد المهدد من قبــل كتلة مضغوطة، سيحجب صوتها تدريجيًا الأصوات المتداخلة، حتى صوت مؤذني الصلاة المنبعث من الجوامع المحيطة بالميدان.

وفــي السابــع عشر من شهــر يناير، تلفــح بغطاء ليتقــي البرد القارس، الذي تسوقه رياح التــلال الثلجية فلمح في محيط بصره صوب المشهد الخالي الصحراوي. وصول العربات الأولى التي تحمل جثث الموتى.

أتت من دون دواب تجرها أو حوذيين يدفعونها، من «باب الفتح»، «سمارين»، «رياض الزيتون» و«محمد الخامس» في التوقيت نفسه، كأن جهاز تحكم عن بعد يقودها، أو قوة خارقة تدفعها. بدأ يعدها بالآحاد ثم العشرات، بينما تتقابل في نقطة الوسط؛ لتفرغ حمولتها، أكوامًا ضخمة من الأجساد المخلوعة أو المتيبسة، أفواهًا نصف مفتوحة كأنها ستصدر صرختها الأخيرة وعيون جاحظة من شدة الهلع لم تكلف نفس رحيمة واحدة نفسها تغسيلها ولفها في أكفانها، تغمض أجفانها، تسد آذانها وفتحات الأنف بالقطن، وأن تربط الساقين والفكوك بشريط، وأن تشبك الأذرع في وضع معكوس فوق الصدر بشكل جمالي، ولا جعلتهم ناحية اليمين بحسب التعاليم الإلهية. شيئًا فشيئًا تحول فضاء الحلقة ومقايضات البيع والشراء بين المترددين عليها إلى جمعية من الجثامين، يتزايد عددهم باطراد دقيق وآلية العمل في سلسلة مصنع ضخم، مثلما هو الوضع في أسطورة التعميد. هل كان الوضع استدغاءً لـ«المساء والضباب»، محفورًا للأبد في صور قصيرة متتابعة لأجساد مكبلة الأيدى، رصاصات في أسفل الرأس، صدور اخترقتها الرشاشات، ضربات بالسنج باغتت الظهور، وجوه شلت حركتها الغازات السامة وقنابل خفض الضغط، فحفرت على تلك الوجوه علامات الألم التي يصعب وصفها.

فقط عندئذ تنبه إلى موجات الفيضان الأولى، وهي تتحرك في سكون.

شلال من الدماء، كأنه فاض عن مستنقع أو سد، جعل يتقدم في بطء من الشوارع القريبة من بنك «المغرب» ومبنى البريد، كسا الأرض باللون الأحمر، فيما تكومت أهرامات الأجساد لتدفق سيارات الموتى. تذكر حينئذ: «من يقدر ولو بكلمات فضفاضة الحديث عن هذا الكم من الدماء والجراح، وإن حاول بشتى أشكال الحديث؟».

فاضت مياه الشلال، فغمرت موقف السيارات وشرفة «الجلاسيني» ليصل أعلى فأعلى. أترى من أي شرايين وأوردة ضخمة تفيض هذه الدماء؟ أهم المعوزون من «بن سودة»؟ أم متظاهرون في شوارع وهران اخترقت أجسادهم رصاصات البنادق؟ أم هؤلاء المساكين المحتقرون المهانون في أحياء القاهرة الشعبية؟، أم شُهداء صبرا وشاتيلا؟، أم تلك الأمهات اللائي فاجأهن القصف في بيروت بينما يتبضعن؟ أم الأطفال قاذفو الحجارة في كفر مالك؟ أم هؤلاء القرويون الذين أبيدوا في حلبجة، أم أطفال متكومون في جحيم «الشطي»؟ أم أنها كانت ببساطة قاع نهري دجلة والفرات، التي تصب بعنف في مدينة «الرجال المقدسون السبعة»، فيما تفيض الحدائق والأسواق والطرق؟ نظر

إلى الكتيبة واكتشف على ساريـــة العلم المرفوع في إشارة للصلاة قميصًا يتموج ويتأجـج ، مشرب بالدماء. أترى أي ملاك غاضب أم رسول للموت وضع هذا العلم هناك؟ من مكانه في برج المراقبة أدرك دون الحاجـة إلــى منظــار معظــم مقدرة الــذروة الخطرة للفيضان ، بينما فاضــت مياهه على البازارات المجاورة. لتجرف معها البضائــع والأشياء. فهل غمرت الميــاة فندق «دي فرانس» عــن آخره؟ هل انحرفت ناحية الناصية باتجاه رياض الزيتونة ولا سبيل للحيلولة دون امتدادها؟

سمــع اندفاع المياه الــذي عبر الطريق الضيــق ، ورأها تصبغ بالحمــرة مدخل دار سينما «عدن» ، كأنهــا قطيع بقر يخور منطلقًا فــي متاهة الشوارع الضيقة المفضية إلى منزله. هذا الصخب الذي يضاهي مثيلــه للمياه الجامحــة المندفعة عند بوابــات السد ، جعلت تصعــد متوعــدة بوحشية مــن بين جــدران المساكن. هــل اختفى فجــأة جميع السكان بالمدينة؟ ألم ينتبه شخصــ غيره لهذا الفيضان الدموي؟ هيأ سمعه انتظارًا للصرخات والبكاء ، وهباءً حاول رصد علامةً تدل على الحياة. انفجر الشلال والفسقية الصغيرة! ألم يشك أيّ ساكــن في المنزل في المشهد الــذي رأه؟ أسرعوا جميعا ، على عجــل ، أمسكوا بالخرق والجــرادل وشكلوا ســدًا ملتحمًا للحيلولة دون صعــود شلال الــدم على السلالم. ألا تــرون أنه على وشك

الدخــول إلــى المكتبة وإغــراق الكتــب؟ حاولوا إنقــاذ المسودات ومخطوطــات هــذا النصــ، النصوصــ الصوفيــة الإسلاميــة، المسيحيــة، العبرية، مجلدات «دانتي»، «ابــن عربي»، «الدليل الروحــي»، «كتاب المعــراج»، لا تسمحوا لــه أن يغطي ويمحي تعبيــرات الذكاء والعاطفة الإنسانية، لا تسمحوا بإلغاء سر الكلمات الأساسية. أكان يهمس لنفسه؟ أم أن نفسًا مخيفة كانت تسمعه؟ لكن أصبــح كل شيء أحمر اللــون، بداية من السمــاء الخمرية بسحبها المتكاثفة الأرجوانية، يهطــل مطرها بغزارة؛ فتتفجر قطراته مثل الفاكهة الناضجة فوق العلامات الخطرة التي خطها بنفسه، أوراق المخطوطــات المتبعثرة مــن عمله الذي لم ينتهِ بعــد، بينما غمرته المياه بالكامل.

أمهله الوقت لحظات قصيرة ليطالــع ديوان شعر بين يديه فقرأ «خفف الــوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هــذه الأجساد». قبل أن يغرق فــي دوامة نحو.فيض الدماء، والموتى، وملاك الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات.

-9-

أكان هاجسه بتقدم عمره هو ما دفعه لاستعراض صور الأماكن الأجمل التـي عرفها في حياته، يسيطر عليـه القلق والحزن لشيخ خـرف يهوى جمع التـذكارات والتحف، قبـل أن تختفي هذه عن نظره بأمر من بارئه؟ أم لعـل وهن السنوات الواضح في حركاته غيـر المؤهلة وتحسسـه كالأعمى، عندما رأى فـي ذاكرته، حين أدار قناة التليفزيون، المـدن القديمة التي أحبها، قد تغطت بأكوام الخـردة والحفـر السوداء، بينمـا تنبح الـكلاب البوليسية للإعلام بحبور؟ ها هـي عاصمة هارون الرشيد المحببـة العائلية. الأعداء مذعورون مثـل الصراصير لحظة إضاءة نور الحجرة، يدهسون في تشتتهم المجنون رعبًا من غضب المهلك.

قـرر الهروب من هذه الأجواء غير المحتملة، من ملامح اللوم الصامت للكثير من الوجوه المرتعبة، من الشعور بالذنب الذي ظل يعذبـه. بالرغم من كل ذلك، استقـل سيارته الصغيرة وانطلق في أقصـى سرعة في طريقه للجبال المكسوة بالجليد عبر طريق تتخلله أشجار الصبار واللوز المزهرة. هناك القليل من المارة والقرويين الجالسين القرفصـاء، أطفال رعاة مرتعـدة فرائصهم من البرد، كأنهـم خيالات مآتـة، أترى هو الحصي رمى فـي طريق سيارته المتهالكة الصفراء؟ ماذا سيفكرون بشأنه غير أنه هرع إلى موعده بانضباط في سمراء؟ وصل إلى المدينة الصغيرة بأسوارها الوردية

وأوقف سيارته في الموقف الشاغر. وقف العملاق المهندم مرتديًا سترتــه وسروالــه المنقوش الأحمــر، يستقبل بحفــاوة - مثلما هو معتــاد- السائحين لحظة نزولهم مــن الحافلة، ولم يقف بمكانه عند البوابــة المفتوحة بين دعامات السور، وغفلت عربات البائعين في الممر المفضي للبهو، ومتاجر الهدايا التي كانت منتعشة قبل تعرض الفنون اليدوية، والبطاقــات البريدية أصبحت بلا حركة أو فائدة. كتــب البيانات في البطاقة التي أعطاه إياها موظف الاستقبال، ولج إلــى الحدائــق المهجورة المتخثــرة لأشجار الخيــزران والموز، والأشجار الغريبة، وتتابع الأفنية المزينة بنوافير صغيرة.

تجمعــات مائية للسلاحف، ومئات الغــرف الشاغرة، والخدم الكسالــى يتحركــون بمكر مثل الأشباح والمــكان برمته ملك لهم. جماعة من القطط الجائعــة، عيونها مثل عيون إبليس، رافقته إلى باب ملجئه.

وبعد ذلك مرت دقائق وساعات، بينما كان مستلقيًا في راحة في الوحدة غير المألوفة بجــوار البركة، استشعر تحت ضغط لا مثيل له سرعة الزمن الغاضب، غضبه الذي يلتهم الأشياء والمخلوقات: رياح الغروب، الحية الشديدة تهــز جزع شجر الكارانداي، تهز فروعها، تعقد وتحل مؤامرات السحاب الشريرة. أوراق أشجار المانجوليــو ولحائها تسقط فوق المياه اللامعــة المتموجة، المقاعد الشاغرة، الديكور التافه لعالم أبيد على حين غرة. ملئ رعبًا لدى

رؤية طاوس ذيله بديع، لكنه يهتز غضبًا. وماذا عن الطيران إلى سيمورج، هل أصبح كابوسًا؟

هرب وهرب مجددًا، إلى أماكن جبلية وعرة، بحثًا عن مخابئ وملاذات خفية، مدركًا أنه لا شيء، وغير قادر على فعل شيء، ولا يساوي أي شيء، تحاصره خيالات كئيبة ذائلة: مشاهد القرى المكدسة إلى جوار الجوامع، قرى مثل أعشاش الصقر، قطعان الأغنام الصغيرة تتداخل مع مشاهد شتاء نووي، أمطار حمضية، غابات متفحمة، مناظر محطمة.

أوقف السيارة عند إحدى التقاطعات، وأخذ يفك طلاسم الكتابة الممحية على اللافتة:

«طريق بلا مخرج»

أيستطيع أن يعود أدراجه للسير خلفًا؟

محيت آثار الطريق خلف ظهره، واشتعلت السيارة المفككة كأنها أصيبت بصاروخ عدو.

وأبصر وسط هذه الجغرافية الخربة شجرة عملاقة، بدا ظلها مثل العطاء والهبة وسط الطرق الضيقة المعتمة والأزواج المشتعلة.

أهي النهاية؟

كانت تنتظره واقفة، وهي غارقة في النقاش مع السيدة ذات المظلة.

-10-

عبـرت أماكن جافة قاحلـة وتحملت مظاهر الخـراب القاسي، وعانـت مـن استشهـاد الأرواح والآلام الباطنيـة التـي ذكرهـا المتصـوف، وبعـد مرورهـا بكل التجـارب، ولدت مجـددًا في رشاقتها ورقتها ونضارتها، ترتفع في فضاء غير محدد، توجد فيه في حالة من انعدام الوزن اللطيف الحالم.

«وبما أننـي لا أستطيـع أن أكون «بياتريث» التـي عرفتها»، قالت ذلك بلهجتها المتواطئة السعيدة، و«إذا أردت أن تزور جهنم سيكون من الأفضل أن تلجـأ إلى خدمات مكتب سفريات. وهناك سيعرضـون عليك كتيباتهـم المصورة، وبهـا برامج الرحلات، وسيضعون تحت تصرفك مضيفة تتحدث عدة لغات».

تضحك مجـددًا، مثـل الأيام الخوالـي، حين كانـت تنتظرك بالقـرب من باب الخروج ثم تذهبان لتواصلا نقاشكما عن شخصية الراهـب «هيتـا» ومسرحية «لا ثيلـستينا» على المقاعد العامـة بـ«واشنطن إسكوير» أو بمقهى قريب من القسم. كانت تدخن مثل عادتها سجائر جاولويزيز الزرقاء.

في لهفة الشاعر ليتعرف إلى أصدقائه وأعدائه في دوائر جهنم، ألـم يدلل ذلك على مرض طفولي ولذة منحرفة؟ ولتضرب مثلا بـ «فيليبو أرجنتي» في النشيد الثامن.

من غير الممكـن وصف بشاعة الألم، بينما رجلنا الطيب، بدلاً من التعزي لمعاناة التعس، يتسلى بتأمله.

تنزلقـان بسرعة، كأنكما في ساحـة للتزلج على الجليد وتجذب هـي من حقيبتها نسخة «الكوميديا الإلهية» التي تحوي ملاحظاتها. ويـا للأسف؛ لأنها لم تدرج في فصولهـا دراسة مقارنة بينها وبين «المعراج» لـ ابـن عربي والتعمق في الحقل الـذي دشنه «ميجيل أسين بالاثيوس».

مفهـوم الرحمة الإلهيـة لخاتم القديسين لا يماثـل بأي شكل من الأشـكال مفهومها عنـد الشاعر الملحمي، وبالمثـل لا يستحق هذه القسـوة والافتقـار للأحاسيس. هـل تتخيل ابن عربـي يكتب هذه الأبيات: «سيدي» قلت، «أتمنى بشدة / قبل أن نترك هذه البحيرة/ رؤية المتهـم يغرق؟» أعرف تمام المعرفـة أن أحدًا لا يقدر على الحكـم على عمل مثل «الكوميديا» في جمالها وتماسكها انطلاقًا من هذه التفاصيل، لكن يجوز الحكم على المؤلف من خلالها.

أنـت الآن داخـل ما يشبـه وكالة للسفـر رفعت عليهـا لافتات للوحات «بوسكو» و«ماء النار» لـ جوستابو دوري. وضعت على العارضـ قائمة أسعار للرحـلات المختلفة والجـولات السياحية. كتب بالفرنسية: «نقـدم لكم أسعارًا استثنائيـة»، تقول المرأة التي تحمـل الشمسية، بينما هي منغمسة بين الهواتـف المتعددة حولها،

«إنه عرضٌ رائع»، وعندما تضع السماعة يجيب الصوت على عدة مكالمات هاتفية في الوقت نفسه: «نعم. . غدًا، أرجوك انتظر قليلاً. حسنًا سأحجز لك الأماكن في لحظة».

وعقب حوارات قصيرة، تتخللها الزفرات والأنين،

لم أعد أستطيع

يجمع الرسائل المرسلة عن طريق الفاكس، ويفحص بسرعة شاشة الكمبيوتر.

تقول الموظفة بالفرنسية بعد أن نظرت أخيرًا لك - معذرة - كلي آذان مصغية.

تلتفت إليها طلبًا للمساعدة، لكن تكتشف أنك وحيد: لقد اختفت.

على ما يبدو أن السيدة المتبرجة، كأن على وجهها قناعًا، مزججة الحواجب، جفناها مصبوغان، ووجنتاها مطليتان، بالمثل وجهها بمسحوق الأرز، بينما شفتاها مصبوغتان بلون قرمزي فاقع فيبدو مثل قلب، أدركت عدم تركيزك فمدت مروحتها بدلال وغواية.

No vous inquietez pas! Une visite pri vee avec un guide vous eclairera advantage[2].

---

(2) لا تقلق، زيارة خاصة مع الدليل ستوضح لك الأمر بشكل أفضل. (المترجمة)

تحلـم أنك في متحـف كبير للتماثيـل الشمعية؛ مثـل التي رأيتها سابقًا حيـن زرت باريس ولوس أنجلوس. تعبر خلال ممر مكسو ببسـاط فخـم، وعلى جوانبه علقـت لوحات كتب عليهـا «صديقة الملذات» فضـلاً عن رسومات تبرز الجحيم لفنـان «الكوميديا». تفتقـر المضيفة التـي ترشدك إلى ملامح محـددة، ولاحظت؛ أنها تتعامـل معك بعجرفة واضحة، معرفتهـا الواسعة تصيبك بالسقم، فتتفحص التماثيل الثابتة فوق القواعد فـي محاولة لتتعرف وجوه معروفة لديك.

يتلـوى أحـد الأجساد المرفوعـة على خازوق حتـى اللحظة، ويبدو أنه يتحمل الألم بثبات وتكسو وجهه ابتسامة متشنجة.

التوضيحات التي تبـث عبر مكبر الصـوت يصاحبها سيمفونية مؤلفة من ضجيج كور الحداد، وهبات الرياح وأنين الغضب.

وهـؤلاء الأشخاص الذين يرتدون الملابـس الفخمة، تكسوهم هالة مـن الحكمة والقداسة، هم المتابعون لـ «ابن تيمية»، و «تور كيمـادا» و «منيندث بلايو». لا يعانون من أي عذاب، سواء كان الكبريت المصهور، أو الالتهام المتواصل أو سهام نارية. فعذابهم نافذ وحاد. يتأملون داخل دوائر المجد من أدانوهم بالكفر والزندقة

والانحراف الخائن بسبب ضيق أفقهم: يزون المعلم الأعظم وخاتم الأولياء «ابن عربي»، «الحلاج» «البسطامي» «السهروردي»، وأتباع الشاذلية «المنورين المهجورين»، إلى رفيع المقام «ميجيل دي مولينوس»، إلى «دون خوسيه ماريا بلانكو». فيا لدرسهم الرهيب. اعتبروا فردوسهم أو جنتهم مثل نادٍ مقتصر على طائفة صغيرة و تجاهلوا أن الرحمة الواسعة لله الواحد.

(من الذي يتحدث؟ أهي المضيفة التي ترتدي الزي الموحد أم هو صوتها يتردد لسبب مجهول، بحذر وغموض في ظلمة الظلال؟ وهذه الشخصيات التي تلمحها على الحوائط، هل تشكل أيضًا جزءًا من العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا خفيفًا مثل الذي نبصره في الأحلام؟)

تستدعي بعض الشخصيات المألوفة اهتمامك. تفحصت حين ابتعدت عن الآخرين سيدة تضحك بمفردها، من دون أن تتمكن من التعرف عليها بدقة، كانت كأنها تحتفل بالانتصار في مؤامرة أو مكيدة سرية. وقف إلى يسارها صحفي شعبي منافس لـ ميداس، يحول كل ما تلمسه يداه إلى عمل فلسفي. وهناك أيضًا كائنات صغيرة تتحرك في مكاتب بحجرات أحد المنازل المعتمة مرتدية أقنعة ثعالب البحر.

«هلم بنا»، قالت عبارتها في لهجة تهكم لطيفة. لتقل لي الآن إنك لئيم ومهوس مثل دانتي نفسه.

هل سيهمك بحق الشيطان أن تجد واليكريا المرأة الليتوانية السمينة مدمنة الكحول، وهي تكتب ملاحظتها عن الكتب التي قرأتها في أقبية مملكتها المتلاشية المنهارة؟ ألم تلفق أنت بنفسك إحدى المخطوطات خلال حياتك؟ (هذه الشخصيات التي تتأملها وتنتبه إليها مرتبكًا، أهي تنتمي إلى عالم مرئي؟ ووجودها في المتحف مجرد عبث أم هي رمزية وحسب؟ من أدرجهم في متن الظلال؟ أهو خيالك المنتقم أم حيلة حاكها منكر؟)

«هذا الرجل الثرثار الخبير في اللا شيء»، قالت المضيفة وهي تشير بإصبعها إلى الصحفي الشعبي، أتعلم أنه لن يؤثر في عالم الفكر أو الرواية أو المسرح أو البحث، على الرغم من إنتاجه الغزير الذي بذله في هذه التخصصات. وينطبق عليه المثل القائل « أيها الإسكافي، فلتعتني بأحذيتك».

لكن بما أنه يجهل هذه الحرفة، فلتقل له بطريقة مهذبة:

«أيها الفارس، فلتعتني بأحصنتك».

(أليست الطالبة في الفصل الدراسي التي تغطي بشرتها البثور،

وفمهـا مغلق بنوع من الأغلفـة أو كمامة تطهو فيهـا لعابها النتن ؛ أليست إحدى شخصيات كتبك؟

لماذا تصر السيدة على أن تريك هذه الكتلة العفنة والمحترقة؟)

أترغب في الهرب من المتحف، والتحرر من ثقل هذه الزيارة الموجهة، لكنها تتوسل إليك ألا توقظ المضيفة بحركات أو إيماءات غير حكيمة.

تقول: تحلي بالصبر، ألا ترين أننا كائنان في حلم؟

عبثـا تبحثان فـي هذه الأجـواء والممرات المكسـوة بالسجاد، واللوحات على الجدران، عن أية لافتة تشير إلى الخروج

EXIT، AUSGANG, SORTIE, USCITA.

سيغلفكمـا الظـلام الكثيـف المصمت فـي المدفـن القبوي حين تهبطان إلى وحدة الظلال في محيط مدينة الأموات.

-12-

أتــرى هو توقع أم مجرد حدس واعد، أم الوله الشديد للطهارة الشعائريــة، أم الذاكرة أم بريق اللقــاءات السابقة؟ لست على يقين محــدد، ربمــا كان الأمر مزيجًــا من كل هذا، مــا يدفع بخطواتك إلى هذا الصراط المضاء بشعــاع رقيق من أشعة الشمس، صوب الحمام المجــاور لجامع الحي. إنها ساعــات الحرب الفاصلة، من دون أدنــى أمل فــي الاتفــاق أو الهدنة، حين ترقــد آلاف الجثث المتكلســة بفعل سيل النيران، ترقد تحت سحب سوداء كثيفة في ليل مزيــف كبريتي متشبع بالأبخرة الثقيلة. هل أنت بحاجة لتغتسل من أثر غثيان معنوي أصابك؟ وأن تزيح عن كاهلك لبرهة هذه الهوية المسببة للشقاء؟ أن تغوص فــي مملكة معتمة غير محددة. سيكفيك أن تعبر هذه البوابة التــي تقسم ما بين الضوء والضباب، أن تخلع ملابسك فــوق دكة خشبيــة وضيعة، وتأمن وضــع ملابسك لدى حارســ النفوس المتطهــرة، وعند موضع قدميه جلســ متقرفصًا شــاب هزيل يدخــن الكيف، متدثــرًا بجلبابه الــرث معتمرًا عمامة عفريت.

هل أنت في جهنم السفلى حيث المقر الذي ترشح فيه الظلال؟ أم هو البرزخ أو العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا رقيقًا

وفقًـا لكلمات أشرف الأوليـاء؟ يمحو الضبـاب والحدود، ويظلل المشاهد، يضفــي هالة قوامها الخطر المداهم فـوق الممر وأرض الزلقـة، ما بيـن الأشباح التي تتحـرك بحذر، والأخيلـة المنهكة تبدو مختلفــة الأعضاء والأطـراف. هل ستتقرب إليهـم بدلو إلى حوضــ القاع؟ بينما لم تعتد عيناك بعــد الضباب، ولا يكاد يضيء ســوى بصيص من الضــوء الخافت، مصدره النوافـذ الصغيرة، تبحــث متلمسًـا ركنًا تمد جسدك فيــه ما بين كائنــات أخرى منهكة ومتهالكــة قوامها الحلم نفسه. هــل يأتون أيضًــا لغسل رعبهم من هول المذبحة، ومن الهواء الجاف المدمر، من الإعصار الغامض والعاصفــة المشتعلــة، من الصخــور النارية المنبعثــة من الآبار، وعمليــات القصف التي تــرزح الأرض تحتهــا فترتعش وتخور؟ يلتهــم البخار أشكالهم الهلامية. البعضــ منهم يتحرك ببطء. تنوء ظهورهــم بالحمل فــي انتظار الغســل المطهر الــذي سيبعثهم من جديــد. والبعض الآخر ساكن بغير حــراك وكأنهم مصفوفون في مستــودع للجثث، وهم غارقون في الحلم أو الإغماءة. وسط هذه الكتلــة المبهمة عديمة الملامــح ستكتشف في ارتيــاح وجود شاب طويــل بهي الطلة، صدره مفتول، عضلاتــه بارزة عروقه نافرة رشيقــة. تضيء وجهه ابتسامــة بيضاء ناصعة تبــرز شاربًا أسودَ رفيعًــا. بدا جلده لامعًا بنــور فسفوري رقيق وبينمــا كان يتحرك

بخفــة بين النفوس المنهكة المريضة، لاحظ أنه يخترقها بسلام مثل شعاع الشمس للأجسام الشفافة.

المــلاك – نعم لقد تعرفت إليه علــى الفور – كان يحمل في همة ونشــاط الدِلاء، يمــر ما بين الزبائن كأنها خيــالات واهنة تتحرك تجاهــك، لينصــب معهم منطقة محــددة تفصلهم عــن الباقين فوق ألواح المرمر الساخن الرطبــة. ألم يعش ابن عربي تجربة مماثلة خلال طوافه بالكعبة. خلال ذهابه وإيابه إلى الحوض، ستتنبه إلى أنــه يغطي أعضاءه بحشمة مرتديًا رداءً صغيرًا، ويبقى غير مرئي لبقية المجموعة. لا أحد غيرك قــادر على رؤيته، وليس بإمكانك توجيــه التحية له، تخمن أنه نكيــر نفسه. وحين تحجبك دِلاء المياه عــن أنظار الآخريــن، ستشعر أنه جالس إلــى جوارك ويدعوك لتوليه ظهــرك. منبطحًا على بطنك فــوق الأرض التي لمعت قبل قليــل، ستترك نفسك ليغسل جسدك ويدلــكك، بلا حراك بين يديه النقيتيــن الصلبتيــن، سلبيًّا مثل ميت في رحلــة التطهر. هل حانت لحظة هجرة الروح لتعيش بعد ذلك اللحظة الجليلة للغسل الطقسي؟ هل سيسبل عينيــك، ويسد أذنيك، وفتحتي الأنف بالقطن، ويربط قدميــك ويديك فــوق صدرك ثم يميــل جسدك إلــى اليمين صوب الكعبــة؟ يفرك نكيــر جسدك بطاقة كبيرة، يتحسســه ويحدد أماكن الشــد والعضلات، يخضعك لوقفات ودرجــات منهجية ومحسوبة

للتعذيب. تتحول إلى مجرد مستقبِل لأحاسيس الألم القاسية المتدرجة، لن تتمكن من إصدار أية شكوى.

تصدر عنه أصوات وصفير غريب ونبرات حلقية وأنفاس متوحشة، بينما يرقد بكامل جسده فوق ظهرك المنهك. ساكنًا مثل المكمم تتابع فقرات تعذيبك: يداه الوحشيتان تتشبثان بكتفيك، تجبرانك على ثني ساقيك وذراعيك، تضغطان على عمودك الفقري فتجعلانه ينثني وفقًا لإيقاع شهقات ليست بشرية. تجد نفسك منسحقًا تمامًا تحت ثقله وتعجز حتى عن التنفس. ماذا يرغب في فعله معك؟ هل يرغب في فصل أجزاء جسدك وشل حركتك من الحزن والرعب، وقتل أعضائك المذنبة لأقصى درجة؟. بالرغم من أنه أبقى وجهك لصيق الأرض ليعمي بصرك عن كل رؤية، فتسجل المشهد غير المتوقع كأن روحك تضاعفت وأصبح بإمكانها أن تتطلع إلى نفسها من الخارج: كأن الملاك طائر جارح تهزه ارتعاشات السفاد، كان يهز جناحيه بعنف، ويدس مخالبه في ظهرك، وينقر جمجمتك بمنقاره. أكان هذا من محض خيالك أم هو متوقع؟ المعاناة غير محتملة وعبثًا تتضرع إليه «خليني، بلاتي» فلا يزيده ذلك إلا غضبًا. كنت تحت رحمة رغبته المدمرة بينما قلبك ينتفض من الرعب.

ما الجريمة أو اللعنة الإلهية التي تكفر عنها؟ على الرغم من صراخك بكل قوة، سيكون الوقت قد تأخر: على الفور ستعاني

من الضغط المؤلم غير المحتمل على قفصك الصدري والدق على ضلوعـك. يغطي لهاث الكير للمـلاك على صوت يخيبك ولا يبدو أن هنـاك أحدًا في هذا الجحيم مهتم بالتدمير القاسي. شدة عناقه لك تكسر عظامك النحيلة، فتتكسر كأنك دمية بلاستيكية، يحطم هيئتك التعسـة. هل سيشرع في تفتيت أعضائك فيعاد خلقه بالتهامها؟ فقط عندئـذ ستدرك بمرارة الشرك الذي سقطت فيه. جمال الشاب .. ألم يكـن ذلك مجرد طعـم استدرجك به من يختبـرك؟ ذلك النور الغامضـ الـذي أحاطت به علامـة واضحة أم حجـاب يداري به غرضه في الإغـواء؟ وكيف يمكن تفسير ضغطـه القوي الخلفي، ولهاثه الحيواني ولذته المتقطعة؟

حين تستيقظ، ستجد جسدك قد عاد إلى حاله السابقة، لكنه مشبع بالعرق.

-13-

لماذا دانتي؟

حتــى إن اعترفنا بــدوره الرائد في تأسيس اللغــة وقوة أشعاره المترعــة، ومفهومه الهندسي البارد للآخرة، ألا يصطدم كل ذلك بمبادئ عصرنا ومشاعره؟ الوحشية الجامدة لوصفه، التي لا تقدر تعبيرات الشفقة العارضة على التخفيف من أثرها.

أتــرى هــل تتوافق هــذه التعبيرات مــع المثل العليــا كالتسامح والشفقة التي تهدينا؟

كانت تجلس قبالته، على الطــرف الآخر من المائدة المستطيلة المنخفضة المثقلة بالكتب، فيما استعاضت - كما هي عادتها - بمدق نحاســي صغيــر يصنع به هو أدواتــه من أقلام وممحــاة وبرايات للأقــلام ودبابيــس. كانت تدخن وتدخــن، أحقًا تدخــن سجائرها «الجاولوسيــس البلو» وفتحــت برقتها المعهودة المــزلاج لتهوية الحجرة. أمالت الرأس بخفة، كان بالإمكان مجددًا رؤية الأسقف، النوافــذ الصغيرة، المداخن، هوائيات التليفزيونات، وقبة الأوبرا المائلــة للاخضرار، وتلك الأطياف البعيدة التي تنعكس مع بنايات حــي «ديفنسي». أم أن المشهد كان محضــ لوحة رسمت بمهارة

وبكل التفاصيل الدقيقة، وبهدف أن توحي بأن كل شيء يجري كما كان عليه في السابق؟

«تأمل ألوان السحب!» قالت بينما تقرأ ما يجول بأفكاره أحقًا تبدو غير حقيقية؟.

لكن هذا الضباب الغائم للمدينة، وحركة الأتراك خلف النوافذ وهم في المحلات يصنعون الحلوى، وهديل الحمائم فوق الأسطح الرمادية، كيف يمكن تفسير كل ذلك؟. لقد جاءت لكي تعيد إليه ملاحظاته المكتوبة عن «دانتي»، وبقيت غارقة في تأملها للوحة المدينة أمامها، كأنها تحاول أن تركب محض صورة للمكان، ربما لتؤكد أنها عادت مرة أخرى. تراتبت الأسئلة في ضميره الباطن وهو يراها مشرقة، مستقلة، رائعة، تصعد السلم بسلام، شاخصة للهدف وفقًا لـ «الدليل» لدرجة معرفتها.

نعم، لكن لماذا؟ هل تبني الإيمان بالآخرة بحسب النصوص الأولى المبدئية لكتاب «المعراج»، هل سيطرح تقدمًا في طريق الإنسان الطويل نحو السلام والتناغم؟ لماذا هذا الإصرار على الغضب والعقاب بدلاً من الصفح والرأفة؟ ألم يكن من الأفضل التعلق بالصوفيين ونبذ اللعنات الغاضبة؟

كان على وشك أخذ المفاتيح والذهاب ليعد لها فنجانًا من القهوة،

لكنه تراجع على الفور عن الفكرة. كيف له أن يعبر الممر ليشرح لزوجته عودته من الظلال من غير أن تجفل من الفزع والعاطفة على حد سواء؟ ألم تكن قد عانت كثيرًا بالفعل من حبه القصير المتحفظ ليأتي ويفرض عليها لقاءً مباغتًا بعد غيابه النهائي؟ استحالة عبوره لعتبة الباب شلت حركته تمامًا. الفضاء الواهي الذي كان يتحرك فيه اقتصر على حدود حجرته الداخلية.

-14-

كل فـرد يدرك مستوى معرفته بإدراك الضرورة: يهرع إليها وإليهـا يسكن، مثل الطفل لصدر أمه، ومثـل الحديد للمغناطيس. وإذا ما حاول أن يهرع لقدر آخر فلن يفلح.

وبالرغـم من محاولته تحقيـق هدف آخر فلـن يتمكن حتى من مجرد الرغبة في ذلك، لن يحقق هذه الأمنية.

قبل ذلـك كان الأمر مختلفًـا تمامًا: فكل مُختـار يجد في تحقيق وجوده غايته والعوض عن آماله وتطلعاته.

يهجران قراءة «ابن عربي» ويتأملان في شاشة، مشهدًا قصيرًا للسموات السبع، والأراضي السبع، طوابق جهنم السبع، ودوائر الجنة، والحجـب المتعددة، الأنوار والبحـور والجبال، تتلاحق المشاهد ويعلق عليها صوت يقول:

هذه هـي الحديقـة، مزروعة بأشجـار ضخمة سامقـة، وافرة الثمرات، يستظل بظلها هؤلاء الذين نالوا العفو عن ذنوبهم وعبروا طريـق التطهر. أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، دون توقف، تطهر وتسكـن بجريانها قلوب هـؤلاء الشعـراء الساكنين بها؛ وقد تعافوا من مشاعر الغيرة والحسد التي سممت وجودهم، ينعم الأدباء هنا بسلام روحي غير مألوف هناك، وصداقة وأخوة حميمة.

لو أنني أخبرك بحق فـإن هذه الدرجة ليست ملائمةً لك، قالت ذلك بينما تضغط زر الجهاز عن بعد. لا أتخيلك في واحدة من هذه الندوات الساخنة للشعـراء، أو الروائيين أو النقاد، أو علماء اللغة والنحـاة، الذين طالما حازوا علـى إعجاب مواطني بلادك، حين يتناقشون فيما بينهم في قضايا أدبية تستغرق دهورًا ولا تنقضي. أية عقوبـة قاسية تلك التي ترغمك على المعاناة في صحبة الأكاديميين وخدم السلطـة، والشخصيات الجوفاء المتشحيـن بالأوسمة، كل هـذه الشرذمة من شعراء مدرسة كفافيس، ربات الفن المفوهات، والمتغطرسيـن المنتفخيـن بثقة النفـس الزائفـة، واللائي اعتدت الفرار منهن يحدوك الرعب.

لا أنكـر أنه علـى الرغم من احتقارك لطبقـة الكتاب متوسطي القامة، فإنك ارتبطت بعلاقات صداقة بمجموعة محدودة، يضاهي حكمهـم الأدبي، في كتاباتك، ويفوق جميـع المقالات التي نوهت بأعمالـك على مستوى العالم. لا شـك في أن غياب البعض، الذين انقطعت عن رؤيتهم لعهد بعيد امتد لسنوات إثر ابتعادك عن الأشياء الدنيوية، جعلك تشعر بالإحباط والحنين، نعم أعلم ذلك.

ألـم تر خايمي في المنام تحرسـه فتاة مذهلة الجمال ترتدي جلد النمر بينما يرتقي هو سلم «جراند أوتيل» أو «بلازو» وعندما لاقاك احتضنك وحياك دون أدنى شعور بالضغينة، وملامحه الدقيقة إثر

المرضــ الذي فتك به، وهذه الطلة الشبابية، التي يحتفظ بها كطفل نشأ فــي رغد، طالما سببت لك ضيقًا؟ و« مانويل» و«رينادلدو»، ألــم يهرعــا إلى جلساتــك الليلية إلـــى الدرجة التي رغبــت فيها أن «تعزم» عليها في ليالي شهر شعبان وطقوس النشوة المصاحبة؟. ثم حجتك إلى قبر «الشاعر» المدفون في الأحراش، وهذا الشعور بالسكون والأمــان يناله من يزور وليا. ومعرفتــك المسبقة بأنك سوف تلتقي بمريدين آخرين مجذوبين لبركة قداسته . . بالطبع هى استثنــاءات، لنفورك من جلسات النقاش في المقهى أو التلفزيون، ولجثوم هــذه الطيور المروضة في الجزء الآخر من الأرض التي تمثلــت في أرواح طيور أخــرى، وفقًا لكتابــي، تحلق بحرية في روضـــة الجنة، وتقف على فروع الأشجــار، تقتات من ثمارها، وتشرب من مياه أنهارها وتتحدث مع الرب.

-15-

ترى أية درجة ستحتل في حفلة النفوس الكونية؟

وبعـد ارتحـال هائم بين السحـاب، تعترضه من حيـن إلى آخر حركـة الطائرات في شكل أفقـي أو حدة مخلوقـات ملائكية مختلفة أشكالها.

(أهـم ملائكــة، أم رؤساء الملائكــة، أم سيرافيـم، أم ملائكة آخرون، أم هي عروس، أم صفوف الملائكة، أسماء وردت في تصنيف كتاب التلقين الشفهي الذي درسته بالمدرسة؟)

وقد تعرض للخطر ارتحال الأرواح الهائمة في قائمة الانتظار، حرة فضفاضة مثل الطيور الصغيرة في البرزخ.

(ترى أيعـود اكتظاظ حركة السير لإضـراب نظمه المراقبون لهـذه المملكة، بحسب افتراضها، أم هو العدد الهائل لتلك الكائنات السماوية. التي تتدفق وتتخبط في لحظات الذروة؟

اصطفـت جميعًـا عاليًا، ومن هنـاك تبدو الأرضـ كأنها حلقة صغيـرة بين أخرى، من تلك التـي تشكل بعدًا مفقودًا وسط سهول مترامية أبعادها بلا حدود.

نساء ورجـال ذوو محيا أبيض ناصع جميـل، تزينوا بملابس تضـوع منها روائـح طيبة، ينزلقون برقة فـي حركات ذات وقع

منتظم، من دون الالتفات إلى معرض السيدة صاحبة المظلة التي تروج لقدراتها في التنبؤ إلى جوارها لائحة إعلان تومض بحروف مضيئة: تلفزيون الرؤية.

استلقيا على أريكة، إلى جوار مكتبها المغطى بالأوراق والحواسيب الآلية والتليفونات. وبعد أن طلبت إليه السيدة جميع المعلومات الضرورية، وضعتها بالكامل في ماكينة، مثل تلك الموجودة في صالات ألعاب القمار، ثم انتظرت إجابة جهاز «الفلاش الفلكي»، بينما تحرك مروحتها. وأخذت تطوي شريط الأوراق الصادرة عن الجهاز ورقة ورقة عند خط القطع، لتجمع بذلك كتاب حياته. مرت لحظات طويلة تبادلا خلالها نظرات التواطؤ والدعم، محاولاً أن يكشف في تعبيرات السيدة عن مضمون الحكم.

قالت في النهاية: حياتك ليست نموذجية كما ينبغي. أليس كذلك؟

أخذت تتصفح الأوراق المنثنية من دون أن تمعن النظر بإحداها، دل ما كانت تقرأه على علامات طيبة بحسب ما وشوشت إليه الأخرى في أذنيه.

أعلم أنك تحب زوجتك، لكن حياتك معها لم تكن دائمًا مثل فراش مكسو بالورود. هل تفهمني؟ أما علاقتك بأشقائك وشقيقاتك فهي تعيسة لأقصى درجة. وفيما يخص كتاباتك فلنغض الطرف

عنهـا رحمة بــك. فأنت نفسك قــد اعترفــت! «to be dead to» decency، حسنًا .. حسنًا، أعرف المقطوعة القديمة عن الصدق والاعتراف كأنك على شفا قبــر مفتوح. محض ترهات وألاعيب ساذجة لاصطياد السذج. ماذا تريــد أن أقول لك؟ فبطاقتك الفلكية لا توصف بأنها مضيئة.

أترى هل كانت كلماتها علميــة ذات سند؟ نصف بين السحاب، ونصف قرب الجبل، انسحبا بروحيهما الخفيفتين المذهولتين، ولم يعلم، هل سيحترق يوم الحساب أم سيدخل في الفضاءات السماوية يضيئها الإدراك الأعلى؟.

يتلمس طريقه بين ضباب «الحاما»، يمرق خوفًا من ملاك يغويه، وتعذيب غادر، تنفذ فجأة إلى لوحة رائعة الجمال:- وفى حلم بطيء، ينعم بصرك بمرأى عشرات من الرجال الأشداء، فرادى أو في جماعات، مظهرهم وحشي، أياديهم متشابكة كأنهم يوقعون عهد سلام. يبدون كمن يحملون الأثقال، عضلاتهم بارزة، وأذرعهم تطوق خواصرهم، ودروعهم على صدورهم المفتولة، سراويلهم الجلدية تتوهج، باطن قدمهم راسخ في الأرض. أجسادهم الصلبة، هيأتهم الجسور، ومظهرهم دليل على شدة إيمانهم، وتدريبهم الموسيقي والرياضي، وأيضًا تجربتهم وتكوينهم الروحي العميق. عند القفز والدوران حول الحفرة التي يعملون فيها، يقبلون باطن أصابع كفوفهم اليمنى، ثم يتلمسون الأرض بها كناية عن التواضع، يقبضون على الأقراص بمحاذاة الحفرة ويضعونها عند أقدامهم، يتحلقون حول المرشد. ينبطحون على بطونهم، مباعدين ما بين سيقانهم لأقصى درجة، أذرعهم مفتوحة عن آخرها لتلامس أطراف الألواح، يقومون بسلسلة من الانثناءات، يرفعون جذوعهم ويشدون عضلاتهم، بينما تتموج أجسادهم تحاكي موجات المد والجزر، تلك الموجات

الناعمة لتيـارات البحور. يحفزهـم المرشد بحـركات لولبية فيما يحصي انقباضـات أجسادهم الحلزونية يتضرعون ويبتهلون المدد مـن «علي» والأئمة القديسين. فقط عندئذ تكتشف مقعد «المعلم»، المتـواري في العتمة الخارجية لحزم الضـوء الخافتة التي تقترب من الحفرة، حفرة المسرات: متكئًا على منبره، في حجرة الطبل، يضبـط الإيقـاع بشكل عجيـب بكلتا يديـه، يعدله وفقًـا لمتطلبات الإنشاد، يحدد بداية ونهاية التدريب، ثم يدق الجرس بدقة وحيوية منقطعـة النظير. موهبته الفذة تدفع وتحفز قوة الأبطال الرياضيين التواقيـن لسمـاع حكاياتـه الملحميـة، الصلـوات علـى الرسول والقصائـد الصوفية الرقيقة. أهي أحلام لازلت تحلمها؟ وماذا عن العمالقـة المسلحين بمطرقـات خشبية مستطيلة ضخمـة تستند على فجوات أكتافهم وكأنهم مجنـدون يتدربون، أترى ينتظرون منك إشارة البدء؟

رؤياك عندما كنت تراهـم يحركونها بشكل متناغم، ويقطعون بهـا دوائر كاملة بمحـاذاة عظم أكتافهم وصدورهـم. أهي حقيقة؟ المشهد المهيب لحاملي الصولجانـات الذين أضحوا أبطالاً في لعبة ورق مترفـة، أيعكس كل هذا مشهدًا ماديًـا محددًا، أم هو محض خيال مبهر بفعل تعرية وضعـه الشائك المهتز؟ وماذا بشأن ملوك الهـروات الرائعين، ذوي الأذرع المقوسـة والأوتار الحديدية،

أتــرى انبثقــوا عن عالم سري بــراق ، مثل شخوصــ حلم مباغتة تجســدت في بهاء؟ نشوة وانخطاف وبهجة وغبطة: الوعي بأنك قد ارتقيــت درجتك ، حظك من العظمة والمتعة الباطنة دون أن تقدر روحك على فرصة الحصول عما هو أفضل. ألم يقل «ابن عربي» إنــه إذا لم تمضِ الأمور على هذا النحو ، فلــن تصبح السماء مقرًّا للسعادة والغبطة ، بل مقامًا للألم وخيبة الأمل اللاذعة. وحين تمعن النظر تتأمــل عمق الحفرة واستدارتها الكاملــة ، الشفرة والصوت لثنائيــة الثواب والعقاب لديك. وهؤلاء الجوالون يطوفون بملاحة ورشاقــة مثل اعتــدال عرناس المغزل ، تنمحــي أطيافهم الصليبية كأنها دوامات أو دوران المراوح.

تــرى هل حظــوا بنعمة حساسيــة اللمس والاتســاق؟، ويا لهذا الإيحــاء أو هــذا الشكل الخرافي الــذي يعكسه هــؤلاء الرياضيون الذين يرتعشون من إخمص أقدامهم إلى أطراف رؤوسهم ، كأنهم شجيرات واهية تحركها نسمات أو السطح المترجرج الهزاز لسائل ما تداعبه ريــاح ناعمة؟ وحين يرفعون أذرعهــم تتلوى أجسادهم مثل هيئة ألسنــة اللهب في فضاء سحري دائــري ، أما زلت منتميًا إلى عالم الأجساد أم ترى أنك تعيش لحظة تبصر ، وأنك انطلقت للأبــد بعيدًا عن المخلوقات والحيل وبالأخص الحساسية المفرطة. مجذوبًا صــوب الحفرة المضــاءة بنور صاف طاعــن يصدر عن

مصابيح، تعجب، وسيزداد إعجابك بهؤلاء الأبطال يستكشفون بحماسة متانة أجسادهم وصلابتها. يشتبك كل منهم بأعضاء غريمه، ويفلت من ذراعه بسرعة وخفة، ويغني المعلم:

إنها عذبة مثل قيود العشق،

هذه المبارزة . . صراعاتها ومغانمها

مجابهة الخصم وفقًا للأحكام

إنها البهجة الصافية.

لكنك تلتهب، تلتهب مثلهم، ملفوفًا في تاج اللهيب، تلتهب، تحترق، وتتلاشى من قدميك لرأسك، مثل كائن ناري خاضع لحلقة المخصصين لنيران الاتقاد، ضحايا طيعون لعاطفتهم وعنف جبلتهم. يدهشك اختفاء الألم، وبطوافك حول حفرة الشفافية، لأجل ما فزت به من تجل إلهي، ستنال المعرفة وأنت رهيف رقيق، ستدرك انقشاع الألم المتأصل للعقاب وبالمثل ذاتيتك الفردية.

أو كان في رؤية درجته أي إرباك لكينونته، أو تأليه للمخلوق، أو تجسيد للمتعال؟

أجاب: لاشيء من هذا. يرى «ابن عربي» أن تضاعف الأشكال ما هو إلا إيماءة تكوين معقدة للحاضر بعينه. وما المادة، الأشخاص، الأحداث، الظواهر الطبيعية والأعمال الفنية إلا علامات لهذا الوجود الحاضر.

وهكذا فالثراء اللا نهائي وتنوع العالم بالإمكان أن يتلخصا في مشاهد مثل تلك التي وصفتها، وفيها الجمال المشع للجسد، وما هو إلا اتحاد، خطوب ونشوة، برهانًا على أن الأنا والآخر ينصهران في واحد.

وضعت الكتاب فوق الطاولة وشرعت تضحك. ذوت سيجارتها في المطفأة، عند طرف المائدة المغطاة بالمجلات، وعندما انتبهت أطفأتها بعناية، وحركت الهواء بيديها لتطرد الدخان.

وكما هو واضح، فقد تعلّمتْ درسها كأفضل ما يكون. تحول البحث عن هامش في ذيل صفحة في دراسة عن عالم الآخرة في الديانتين المسيحية والإسلامية في الأعمال السابقة لـ «ميجيل أسين

بالاثيوس»، إلى تربة خصبة لعالم ملغز رائع، محيط شاسع بلا ضفاف. هل تذكر العبارة التي وردت في«The Crack-Up» التي ذكرها في المحاضرة خلال أحد الفصول الدراسية التي ألقاها في نيويورك: ومفادها أن الدليل على الذكاء الحاد يكمن في قدرته على التركيز في فكرتين متناقضتين، من دون فقد القدرة على أداء العمليات الذهنية؟ ألم يكن كذلك؟ أثارت الفقرة دهشتها، فسجلتها لتحفر في ذاكرتها، ذلك أن «ابن عربي» هو الدليل المقنع لهذه العلامة أو قل هذا الطابع.

فجملة أعماله، أي الفضاء النصي لأعماله، ما هو إلا مقدمة أو ميدان تتقارب فيه الأضداد، وتذوب فيه العداءات، يتصالح فيه المعتم والمضيء والفاني والباقي، كل في انسجام. يقودنا حيث يريد من خلال ومضات مشرقة أو تجليات، العالم بأسره المؤمن والكافر منه يعظم الرب.

اسمح لي أن أقرأ لك هذه الفقرة: « إذا نظرنا، فلا ننظر إلا له، إذا سمعنا فلا نستمع إلا إليه. يتجلى في كل محيا، ولا تنظر العين إلى سواه، هو المعبود في المعبود قاطبة». قد تراني أجترئ، ولكن هاك قراءتي: الهوة الدائرية.. غاية ومنتهى لآمالك، هو استجلاء حضوره وولوجك الدائرة هو فعل الخضوع.

كانت تتحدث في عجلة، في حماسة، دفعت بالدم إلى وجنتيها، وأبرز ملامحها الوضاءة. ومن النافذة المواربة (هل كان صيفًا؟)، جعلا ينظران بإعجاب إلى لونِ الأسطح الرمادي الباهت، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة إلى الاصفرار، وناطحات السحاب دقيقة الحجم في حي «لاديفنس»، وخيال «مون فاليرين» الكائن هناك. هذه التفاصيل الدقيقة وتلقائية حديثها زادت حيرته.

بادرته تسبق اعتراضه: فلتنسَ «دانتي» ونصوص المعراج البدائية، أم عساك تفضل أن نرجع إلى وكالة «السيدة ذات المظلة» ونقوم بجولة مصحوبة بتعليق في «الميدان الثالث»؟ أم تفضل مشاهدة عرض فيديو لحكايات «بوش» ولوحات «دوري» المحفورة؟.

عندما يزج الشاعر بمعلمه «برونيتو لاتينو» في دائرة الفاسقين المجرمين، مرتكبي الجرم الأكبر، فيصفه وهو مغطى بالبثور، ووجهه مشوي عن آخره: كيف لنا أن نعتقد في احتجاجاته الناجمة عن الحب والاحترام، إذا وضح أن الأمر لم يتعد كونه مجرد انتقام بائس.

لماذا يتركه في هذه التربة المثخنة المضطربة، في هذا الرهط المقدر له بكاء آثامه إلى ما لا نهاية بوجه كالحبر غيّرته النار؟

يا لــه من مثال على السماحة والـروح المسيحية! فلنرجع مرة ثانيــة إلى موطنك: الجحيم هو تلك الغلالة الفاصلة التي تحول دون أن يعـرف الإنسان الله في جميـع صوره، هو الحجاب لمن يتأمل في تجلياته دون أن يراها رؤي العين. هذا هو ذنبه وعقابه الحق.

أخذ شخص ما يقرع باب الأستوديو مستخدمًا الطبلة النحاسية، فتبـادلا النظر في قلق: أو يقدر هؤلاء الذين لم يلجوا بعد إلى فضاء الشفافيــة أن يلمحوهما، ويتقابلوا معهما، ويتبادلوا معهما الحديث؟ التزما الصمت وحبسا أنفاسهما. وأخيرًا، بعد انتظار بدا بلا نهاية، تناهى لسمعهما صوت شيء ما ينزلق من أسفل الباب، يتبعه صوت خطـوات متذبذبة على الأرضية الخشبية، تـلاه أزيز المصعد يبدأ يتحرك.

-18-

وعلـى السجـادة المفروشة على الأرض فـي المدخل على بعد سنتيمترات قليلة من الباب، ظرف صغير مستطيل من دون إشارة عليه لهوية المرسل إليه. فضّه بواسطة فتّاحة الورق، بينما جسده ينتفض، وقرأ بصوت مرتفع؛ ليخبرها بفحوى الرسالة:

سيدي العزيز:

نطلب منكم الإجابة باختصار شديد، وبصورة واضحة ومحددة عن الأسئلة التالية، ولكم جزيل الشكر:

1ـ من هـم المتسترون، الأصفيـاء، الأتقياء، الحارسون المخلصون، الذين يتخفون بين الورى خشية أن يبصروهم؟

2ـ في أي تاريخ تحديدًا بدأتم ممارسة العادة السرية؟

3ـ ما عدد مرات إخراجكم وما إفرازاته؟

بإمكانـك أن ترسـل إلينـا الإجابـات مكتوبة، إذا بـدا لك أكثر ملاءمـة، وللعلم إن القواعد تسمح لك بالإفـادة الشفهية في مكاتبنا خلال ساعات العمل

تفضلوا بقبول احترامنا،

دكتور نكير ودكتور منكر

خبيرا الحساب

انتفض قلبه. كيف تمكـن المحاسبان من الكشف عن سر مخبأه القديم في مملكة الأحاسيس الملموسة؟ أترى يتحركان مثله، بنفس السهولة في مجال العالمين؟ رجع إليها متحيرًا، وتضاعفت حيرته حين وجد الباب مغلقًا على حاله بمزلاج، وأن المكان لا يتيح أيّ نوع من الهرب، إلا أنها اختفت في صفاء وسهولة.

-19-

حيـن استيقـظ أو عبر مـن حلم إلـى آخـر ، أربكتـه المفارقة التاريخيـة. لهـذا الموقـف: ألم يترك - بعـد موتهـا - الأستوديو المواجه لشقته حيث قابلها حاليًا ، لينتقل بأوراقه وكتبه إلى الطابق السفلـي المتصل بشقة زوجته عبر سلم حلزوني؟ وإذا كان انفصاله عـن سجن الجسـد تم هنـاك ، فما مغزى هـذه العـودة التخيلية أو الحقيقية للظرف السابق؟ وماذا عن هذا النفاذ الواضح ، هل يخضع لتعسـف القوانيـن الحاكمة للأحـلام ، أم هو محض أثـر لسلطات مسوخ الأرواح التي تهيم كيفما اتفق في البرزخ خلال الأربعينية؟

-20-

استثمـر في العالم الآخر، تملك أنت ونصفك الحلو قطعة أرض قابلـة للبنـاء، فيلا مستقلة مريحـة، أو شقة مـن طابقين في عمارة فاخرة. تطل بشكل استثنائي على الفضاءات السماوية المنيرة، في مختلف درجات الفردوس أو دوائره ، وفقًا لما يتيحه مسكنك.

نقدم عروضًا خيالية لمعروضاتنـا! تسهيلات كبيرة في الدفع، ومكافآت خاصة للمحاربين القدماء وعربات الحروب.

تصيح السيدة ذات المظلة خلال مكبر الصوت، توزع إعلانات ومطويـات، وتقدم نمـاذج للعقـارات والشقق وتصميمـات بناء صادقت عليها إدارتا الإعمار الحضري والبيئة.

مقر شركتنا القابضة الأصلي فـي «تامبا»، وفلوريدا الولايات المتحـدة الأمريكية، تـم إعدادها بالتنسيق مع خبـراء القيادة العليا لعملية «عاصفـة الصحراء» ذات الشهرة العالميـة، الهرم الكامل للإمـارة الشهيـدة وإعـادة إعمارهـا، وهـو مـا أنعشـن اقتصادنا المحتضر، وملأ الكون إعجابًا وفزعًا. والآن، طويت هذه الصفحة العظيمة من تاريخ قواتنا ورموز علمها النجوم والخطوط، وقرر قطـاع الإدارة بعد اجتماعه بطاقم المساهمين المبادرة بقفزة نوعية ومـد أنشطته في مجال البناء هـذه المرة، التي تحترم عنصر البيئة

بما في ذلك ملكوت السماوات، من خلال تعاون وثيق مع مؤسسة (KTC) ومختلف المجموعات البنكية.

Sans oublier la touché du chic et du refinement. La difference francaise![3]

صـرت منجذبًا مثل أرواح أخرى هائمـة، نحو قاعة عروض الشركـة القابضة، ثم ستتابـع معها شريط الفيديـو الذي سيعرض المـادة الدعائية بمصاحبة أبيات شعر لـ«دانتي» وصورًا من الجنة بحسب رسومات «دوري».

تأملوا الجبل المقدس لكمال الروح وخطوبها، ألباب الفضاءات تعكس الأشعة من عليين، وتطبع على المادة صورتها.

كما ترون فإن الشرفة التـي التقطت منها هذه المشاهد لشقة من طابقيـن في إحدى مبانينـا السكنية، مزودة بجميـع وسائل الراحة التـي تطمحون إليها، بعد حياة كرسـت للصفقات وانتصار مبادئها للتقدم والعدالة.

لاحظوا تفاصيـل حجرة الجلوسـ، والصالـون البانورامي، وأجهزة التلسكوب المخصصة لمتابعة رحلات طيران المخلوقات السماوية، ومسار صواريخنا الباليستية.

---

(3) دون أن ننسى لمسة الأناقة والرقي، التميز الفرنسي. (المترجمة)

وضـع تحـت تصرفكـم التطـورات التقنيـة وأساليـب الغزو؛ لتستمتعـوا برغد العيش، وكل ذلك بأسعـار خارج المنافسة، وفقًا لما تحتمله مدخراتكم.

وفجأة.

Merde! Mais qu'est-ce que c'est ca?(4)

فبدلاً من تصميمات العالم تحـت القمري والرؤية الطوباوية، عكسـت الشاشة صور خراب ودمـار وأطلال، عربات متزاحمة تشتعل، أبخرة قاتلة تنفثهـا طائرات تحلق على ارتفاع منخفض، أجسـاد متفحمة، مروحيـات تقذف ألسنة اللهـب، مشاهد رعب، شتات جحافل نمل هائج، مشاعل، محيا أطفال ونساء يلهثن لنقص الأكسجيـن، نيران، مزيدا مـن النيران، سفـر الرؤيا، رعب، احتراق جماعي.

(صوت بعيد: Say hello to Allah)

شخصـ مـا (أترى شيطـان أم جني؟) يبدل شريـط الفيديو في الجهاز المتصل بتلفاز السيدة ذات المظلة.

---

(4) اللعنة! لكن ما هذا؟. (المترجمة)

هل هي ذكرى باقية من تدريباته الروحية في دير «مانريسا»، أم إعادة صياغة تالية على ضوء كتابات «بلانكو وايت» في «سيرته الذاتية»، وتداعيات «إستيفن ديدالوس» كما رسمها جويس؟، قالت: تلك الرسومات القاسية للعواصف، التشبيه بين الطائر الصغير وجبة الرمل يلتقطها بمنقاره كل عشرة آلاف سنة في الشاطئ الشاسع، القصة التعسة للمراهق الذي تقذف به ألسنة اللهب الخالدة، جراء ذنب واحد هو النجاسة، يعرض كل هذا ضمن مشهد مسرحي خبيث، ومحاكاة كهفية قبالة جمهور صامت مرعوب بعد أيام من عزل محكم. يتطابق كل ذلك في حقيقة الأمر مع صيغة منحطة فقيرة للإيمان الشعبي بالآخرة، وما يروجه الواعظون الجهال المتحكمون في بث الخوف.

لم يعد أحد يعتقد في الجحيم ولا في أسطورة الطفل الذي يحترق في قدور «بدرو بوتيرو» جراء خاطر خبيث عنّ له، وبعد أن دهسته حافلة عقابًا له.

استقرت بها الحال بأحد المروج، بالقرب من حديقة النعيم، وطوقا بناظريهما بئر المياه مبعث النشوة، تتحول إلى لهب الوجد الحي، والعين التي تعكس عيون المحبوب مجازًا، والشجرة التي

تنمو في صلب الروح المتأملة، نفوس الأبرياء المتجسدة في طيور صغيرة في طواف محموم، وريشها بياضه باهر. بادرت تهدئ من روعه؛ لأنها لم تكن تثق في حواسه، كل هذا يصوره الديوان الصوفي، ولن تأتي السيدة ذات المظلة لتعكر هذا السكون بحوارها المزعج.

قرأت بعناية مادة النص البحثية، وبالرغم من أنه لم يكن باستطاعتها مساعدته في العمل أو ترجمة أوراقه، فإن خبرتها المتراكمة المكتسبة في البرزخ مكنتها من الكشف عن أنوار وتجليات خاتم الأولياء. قالت: جهنم موجودة، لكن خلود الدوام بها لا يفرض ديمومة الآلام. ستمتد الرحمة لتشمل الجميع، وستصبح نار الهالكين بردًا وسلامًا.

ولأنه توجد مخلوقات أرضية وهوائية ومائية، فلماذا لا توجد النارية؟ أو ليست النار هي العنصر الأكثر جمالاً ونشاطًا في العناصر الأربعة؟. أما هذه المخلوقات الملتهبة، مهما كانت خطورة ذنوبها، تحيا وفقًا لقانون طبيعتها، وسوف تعاني إن حرمت مما تستلزمه طبيعتها؛ مثل السمك يختنق حين ننزعه من الماء. فالنار مجالها وفيها تعرف سعادتها الأبدية.

يا لعبقرية الطريقة هذي في تفسير نص الكتاب المنزل! أو تتصور فضيحة هؤلاء اللاهوتيين والفقهاء؟ انظر دائرة الأبطال

الرياضيين، بادية عليهم علامات السعادة، وجوههم وشواربهم المقرونة، عضلاتهم المفتولة، وأجسادهم المدملجة القوية، «مثل كتلة كريستالية موشورية الأبعاد، عظيمة الهيئة صافية»!

كم من المرات جثوت أمامها في ذل وإكبار من هول حجمها وأشكالها، وروعة تفاصيلها، الصلبة الكثيفة؟ بصرك بتجليات كون تسبح له فيه الكائنات قاطبة، بما فيها الأحجار، فهمت بهم عبادة. لقد ألهاك تكاثر الأشياء والكائنات. والآن بعد أن قرّت الروح وهدأت، ستقدر على التقاط انسجام العناصر وتوافقها بحماسة ساكناً ولطيفاً. انظر مجددًا لعرض الفيديو للحفرة واحتفالية الرياضيين ذوي الأجساد المتينة، تحترق معهم، مع أكثرهم أمانة وأوفاهم شجاعة. يتداخل جسداكما الملتهبان لحد ذوبان الواحد في الآخر! أوليس هذا ماكنت تبغيه على نحو خفي حين قررت تأليف الكتاب؟

-22-

زوجته! أمن الممكن لهذا أن يحدث؟

أتراهـا غـادرت مملكة المحسوس بشكل مؤقـت لتحيته، أم يكـون هو الذي قفز للخلف فتسلل إلـى درجة عالم آخر انقضى ؟ هذا الفضاء الحميم بمظهره المألوف لمنزله، بدا له مقلقًا مثل تلك اللحظات الهادئة الخادعة التي تسبق انفجار العواصف الهوجاء. وبينما يخلـع معطفه بحذر، استشعر حـركات زوجته بالمطبخ، تخرج مكعبات الثلج من البراد. تتوجه إلى حجرة المعيشة بخطى مرتعشـة؛ خوفًـا من أن تصـدر عنه لفتة مباغتة تخـل بالتوازن الهش للعناصر حوله. تتداخـل في ضميـره أحاسيس ومشاعر متضاربة.

أيجـب عليه تحيتها بينما تنسكـب دموعه بحنان، مثلما تتطلب الطبيعة الاستثنائية للظرف؟ هل يقذف بنفسه إلى أحضانها ويطلق العنـان لعاطفتـه المكبوتة؟، لكن كيف سيفسر لهـا بشكل عقلاني مقبـول اختفـاءه وعودته؟ ألن يكون في ذلـك مخاطرة تعرضها لصدمة تحرمها استخدام حواسها؟

على الرغم من ذلك، سمعها تحييه باسمه من المطبخ بطريقة طبيعيـة، بينما يدخل. كان الوقت المعتـاد الذي تتناول فيه كأس

الويسكي بعد يوم عمل محتمل أو زيارة بعض الصديقات.

بدا له المكان ملغومًا بالحيـل، وبعد أن اختبر خيارات عدة، مثل دخـول المطبخ للقائها، أو التسلل خلسة من المصعد الداخلي إلى مكتبـه، أو التظاهر بقضاء الحاجة، فيلجأ إلى الحمام انتظارًا لمـا سيحدث، قرر في النهاية البقاء فـي الصالون الصغير، وأن يسترخي مصطنعاً الراحة في أحد المقاعد الوثيرة.

سألتـه بعد أن ظهرت مرتديةً قفطانهـا الأحمر المشرب بلون بنفسجـي، وجلست على الأريكة بعد أن وضعت وعاء الثلج على الأرض:

- هل اشتغلت جيدًا؟

ابتلـع ريقه غير قادر على التفوه بشيء غير همهمة ما، يشعر بالرهبة والحيرة لوضعه، ومدى واقعية المشهد حوله.

لكـن كيف أنها لـم تبدِ أية دهشـة لرؤيته، ولـم تلامس شفتيه بشفتيها بخفة مثلما تعودت حين يعود بعد طول غياب؟

يبـدو الأمر لهـا؛ كأنه عائد لتـوه من جولة بالحـي أو كأنه لم يخرج أساسا من البيت.

انتظر لحظات ثم قال مخبئًا وجهـه خلف الصحيفة، متظاهرًا

بالاندماج في قراءة أخبار الحرب: تجاوز عدد الطلعات الجوية لقوات الحلفاء معدلاً مثيرًا للدهشة تجاوز ستين ألفًا! وأبرزت أخبار القوات الخاصة المستوى الرفيع لاستعدادات الضباط والقادة إزاء الهجوم البري الوشيك.

قالت: لقد سجلت المكالمات الهاتفية. لا شيء مهم، فقط ترك صاحب إحدى المكتبات رقم هاتفه. وبالمناسبة عندما نزلت إلى حجرتك، عثرت على إحدى درجات السلم على نسخة مدونة عليها ملاحظاتك لـ «الكوميديا الإلهية»، كيف نسيتها هناك؟ هل سقطت منك من دون أن تنتبه لها؟ كانت تتحدث بهدوء يتنافي تمامًا مع طبيعة لقائنا غير العادية، منهمكة تمامًا في الشأن اليومي، حتى إنها لم تلاحظ ارتعاشة يديه واضطرابه العميق. كشف محياها الهادئ وابتساماتها المعتادة بوضوح غياب أي لمحة قلق أو عتاب. كان بالإمكان القول إن باختفائه القصير من العالم مكث قرينه إلى جوارها يؤدي دور الزوج.

فأيهما الحقيقي؟ ذلك الذي يهيم في ضباب البرزخ أم هذا الموجود بالمنزل؟

انتهز انشغال زوجته بمحادثة أبيها تليفونيًا؟ قالت بتنهد: أبي. نهض من مقعده الوثير وألقى نظرة على ترتيب الحجرة؛ ليتحقق من أن شيئًا لم يتغير، هبط السلم الداخلي ودخل حجرة

عمله يلقي نظرة. كانت الحجـرة مضاءة، ووقعت عيناه أول ما وقعـت على صورتهـا - شعر أصفر، عينان زرقـاوان، سلسلة ذهبيـة تطوق عنقهـا، كان وضعها على الخزانـة ذات الأدراج في أعقاب عودته إلى المدينة قبل عام ونصف، بعد هجرته لعالم الخفة خلال أحد أسفاره. تفحص بسرعة رفوف المكتبة المحاذية لمكتبـه؛ قواميس، مدونات، أعمال للمراجعة، كل شيء بقي في مكانه. عثر على بعض أوراق لنصوص له لم تنقح. التقط أحدها واكتشف مضطربا أنها مسودة المخطوطة الخاصة بهذا الفصل.

-23-

رأى في المنام أنه يكتب قصة لـ « ابن عربي»:

وإذا سألتموني وماذا عن حكاية « الجوهري »؟ بإمكاني إخباركم بحسب ما قاله هو نفسه، أنه خرج ذا صباح طيب من منزله يحمل عجينًا مختمرًا إلى فرن الخباز وكان جُنبًا. وبعد أن ترك ماله لدى الخباز توجه إلى نهر النيل ليتطهر، وبينما هو في النهر، إذ به يرى نفسه على الحال نفسها التي نرى عليها أنفسنا في الأحلام، كأنه ببغداد. كان متزوجًا من امرأة لمدة ست سنوات، وله منها عدة أبناء، لا أذكر الآن عددهم. ثم ارتد إلى نفسه، وكان لا يزال في الماء، تطهر وخرج من النهر، وضع رداءه، وعرج على المخبز ليحمل الخبز، وحين عودته إلى البيت قص على عائلته ما كان من أمر الرؤية التي أبصرها. مرت شهور عديدة، وجاءت إلى المدينة السيدة التي بنى بها في النيل، وجعلت تطالع معالم المدينة. وحين طرقت باب بيته عرفهم على الفور، هي والأبناء، ولم يقدر على إنكارهم.

سألوها متى تزوجك؟ فقالت: منذ ست سنوات وهؤلاء أولادنا.
وهكذا فإن ما حدث في الخيال ظهر ملموسًا في عالمنا.

وهذه إحدى الحكايات المروية عن «ذي النون المصري» وتحتار في تفسيرها العقول.

هل كانت هذه الحادثة إفصاحًا أدبيًّا لبهجة خيالات بعيدة الاحتمال، تلك التي عرفها «بلانكوايت» واختبرها «بورخس»؟ أو أن الأمر، كما لاحظت زوجته عندما عرض عليها النص، مجرد حيلة ماكرة ساقها «الجوهري» ليبرر زواجه من امرأتين، فأكسبها هالة من القداسة؟

ما كانت هي على يقين منه أنها لو كانت محل الزوجة المصرية، لما اقتنعت بالقصة ولما استقبلت امرأة بغداد وبصحبتها حفنة الأولاد.

قالت بحنو قبل أن تغادر الحلم وتتلاشى؛ إنها لحسن الطالع لن تتعرض معه لمثل هذه المخاطر.

-24-

وضعت البهيمة قوائمها عند عتبة الباب وتمكنت منها، وبالرغم من أنني حاولت منعها مــن الدخول، خارت قوتي إزاء لامبالاتها الجبارة، استولت على المكان بتمهل، تَجول المنزل وعليها سمات المالكة، تتمدد على البساط إلى جوار فراشي وتتأملني لساعات. لا أميز خيالها بوضوح، ولكني تبينت حدقتي عينيها المثبتتين فوقي. لا تفارقني نهارًا أو ليلاً، تترصد حركاتي وخطواتي برباطة جأش، ولا تلتفت بأي حال إلى صخب الزيارات. لم تشعر بوجودها أمي أو أخي أو زوج أمي أو الطبيب الذي حضر لعلاجي.

يسيـرون بمحاذاتها ولا يبصرونهـا، يجسون نبضي ويتابعون صحتي وشهيتي، يعربون عن قلقهم بشأن حالتي العقلية.

وحيـن أحادثهم عنهـا لا يلتفتـون إليّ، يوجهون لـي عبارات التشجيع، ويوجهون دفــة الحديث لموضوعات أخرى. يتحدثون عـن شطط عابـر، انفصـام في الشخصيـة. عاجزين عـن رؤية عيني البهيمة الخضراوتيـن المتقدتين، غير متماثلتين، تبدو أحيانًا كزمردتيـن مرصعتين في رأسها عنـد محيطين غير محددين، في أحيـان أخرى تجدهمـا معلقتين في الفضـاء، متوازيتين، طافيتين ببؤبؤهما الذي لا يُسبر غوره، منتبهتين لأهون إيماءاتي.

ترقبانني بدأب، وبالمثل تفعل مع عائلتي، عينان تتضاعفان نظراتها وحركاتها: تقتحماني من الباب، البساط، النافذة والسقف. أزواج عيون متعددة تقف في أماكن مختلفة في غرفة مستشفى الأمراض النفسية التي نقلت إليها: خضراوان على الدوام، براقتان، غير متناسقتين، غاية في التحديد غير أنهما متقابلتان، مثبتتان على أينما نظرت، حتى إن أغمضت عيناي. تحول ما كنت أخشاه وأنا طفلة منذ موت أبي إلى واقع ملموس. تفجر وجود البهيمة التي تتفحصني في حياتي، سيطرت على نفسي وحواسي، تتحكم بعقلي وتحجم إرادتي. عيناها الفاحصتان موجودتان في كل مكان، تتكاثران مثل فيروس خبيث، تغرقني بوجودها في كل مكان: أجدهما في ثنايات الفراش، على صينية الإفطار، غائصتين في كوب الماء، ذائبتين مع نقاط العلاج التي وصفها الطبيب، كيف لا يرونها جميعهم؟ هل كف بصرهم؟ هل نظرهم أعشي لدرجة ألا يرونها؟ ولأهرب منهم أغادر سرًّا المستشفى، أتجنب المرور بخدمة الملاحظة و أنطلق جريًا إلى محطة القطار الواقعة بتلك البلدة الكريهة في الضواحي، بمنازلها المصطفة، وشوارعها بالغة النظافة لحد القنوط، ولافتات معلقة تهدد بوجود كلاب شرسة، متوحشين مثل أصحابهم، أستقل القطار المتوجه إلى باريس، أجد نفسي في محطة «جاردي نورد» وبعد ذلك بسنوات حين قرأت كتابك، وصادفتني

عبارتك الملغزة التي تصفني فيها على هذا النحو: «الصرخة النافذة» للفتاة النافرة التي تعبر صالة محطة القطار، وتُشكل حولها فضاءً مقدسًا لا يستطيع الفضوليون اختراقه، فهم غرباء عن هذيانها، انفصلتُ عن إحداثيات الزمان والمكان، ورأيت نفسي مجددًا في صالة محطة القطار الشاسعة، التي تعج بالأشخاص، تتربص بي عيون البهيمة المتضاعفة بشكل لا نهائي، فيما أسعى لأشق طريقي وسط الجموع المحتشدة، يفرقها صوت مكبر الصوت، فأكثف في تلك الصرخة جل وحدتي وجزعي.

وعلى الرغم من أنك لم تحددني بالاسم، فإنني عرفت أنني المقصودة. غير ذات قيمة إن كنت أو لم تكن شاهد عيان للمشهد، ألم تكن في ذلك التاريخ محطة «لاجار دي نورد» هى محطتك خلال درجات صعودك؟ كشفتني عين الخيال.

أعتقد أن هاجس لقائنا أنقذ حياتي، وأتاح لي التغلب على تلك الوحدة. لم يكن الفرار من دون جدوى، لقد عدت إلى المستشفى. وشيئًا فشيئًا بدأت عيون البهيمة تحل قبضتها، تخلت عن حصاري، ورفعت الحظر، ذابت تدريجيًا في الجناح المعقم للمجاذيب الذي أرسلتني إليه عائلتي. ومن دون أن أدرك يقينًا، خمنت أن شخصًا ما قد التقط معنى الصرخة، وعثر في تحديه على منطق ذاك المعنى وحصانته. منذ هذه اللحظة، شعرت بصوت داخلي

يناديني، صغير رقيق يخرج من أعماق صدري ويتركني معلقة، أتأمل مدى رسوخه داخلــي واقترابه من نفسي، وفي الوقت نفسه فهو قصي، وعلى قدر مشقتي المبذولة، لم أتمكن من تملكه. لكنني شعــرت أنني شفيت، وقادرة على مواجهــة الموجود، والبعد عن عائلتــي، وأن أتلمس حظي في أمريكا، فأتزوج وأنفصل، وأتابع دراستي الجامعية حتى اليوم الذي عرفتك فيه مصادفة، في إحدى الدعــوات المملة لعشاء الأساتــذة والخريجين فــي «مورنينجسايد دريــف»، وتولــدت لديّ قناعــة - حتى قبل قــراءة كتابك - بأنك مــددت لي يــد العون في أحلــك لحظات المحنــة والشقاء. ولحظة اختفائي في النهاية، عقب ارتحالي وسفري إلى البرزخ، أدركتني الراحة حين اكتشفت أنك لم تكن في المقبرة مثل الآخرين.

استمتعــت روحي حينهــا بالشفافية، وحفرت بهــا أخيلة العالم، باستقــلال تام عــن العصور والمسافــات. استمع إليّ جيــدًا: شكّل نصــك مستئنسًــا بخبرتي المباشــرة لحدس الروائييــن والمتصوفة الذيــن أطلعتنــي عليهــم. ألا تــرى أن الأحلام التــي لا تقدر على إدراكها سوى العين، قادرة على اختراق ما جرى، وما يجري، ومــا سوف يجري. فأيــة ملكة، فيما عدا الخيــال، تحظى بموهبة لتشمــل وتخلــط الأمكنة والأزمنــة، وتوجز الكــون كله في رحم كتاب محظوظ؟

لا يرتبـط الأمـر بشريط فيديو السيدة ذات المظلـة، أو الشاشة التي تعرض لوحات «جوستابو دوري». يسمح الفراغ الحضري الذي تعبره بتتابع لا نهاية له؛ لأطلال قذائف وأخاديدها، واجهات مبـانٍ تزعزع توازنها، مـآذن مبتورة، بقايا حافـلات متفحمة، دبابات مهجورة بداخلها ذخيرتها، محطات وقود مشتعلة، مساكن جوفـاء فتحاتهـا سـوداء، بقايا النهـب وعربدة الدمـاء، وضحايا الإعـدام الجماعـي، تلفهم موجات هـواء يستحيـل تنفسه، رائحة عطنة لها مذاق مسكر لأجساد متحللة، وآلاف المدنيين المشدوهين لحظـة هروبهم، عيون جاحظة من أثر الهـول، جبهات اخترقتها الرصاصـات، وأياد متوترة تشير بإصبـع السبابة لاتهام المسئول غيـر المرئي عن هذه المذبحة. أتـرى تمت التضحية بهم كخنازير تجارب على مذبح التكنولوجيا الحربية الحديثة أم هو الثأر الأعمى للخاسر؟

لن تقدر أن تجيب بدقة بسبب موقع رؤيتك المهتز.

بالمثـل لا تعرف مـكان وجـودك أو كيف وصلـت إليه، قبل وصول جماعات ابن آوي وزحف قوات العدو. هؤلاء المنبوذون المجهولون الذين تجاهلهم دانتي، أهم أكراد، أم شيعة، فلسطينيون،

مرتدون، أم فارون من الجندية، جميعهم فريسة للرعب أم مجرد أبناء للأرض الخصبة لمـا بين النهرين، يستمسكون بغريزتهم في البقـاء أحياءً، كونهـا الحقيقة الوحيدة الراسخـة التي لا ريب فيها. أم لعلـك وصلت إلى الدرك الأول من جهنـم، سهل الزعابيب أو سجنها الذي يلتهم قاطنوه لحـوم أجسادهم، وينهلون من دمائهم، بحسب رواية المسافرين؟

نثرت في الأرض بذور أشياء هجينة، خلفها شعب ضل طريقه خلال هجرته، حرمه التاريخ بقسوة من ضوء العدل: أوعية طهي، ألحفة، بطاطيـن، قطع ملابس من أزمنة شتى، مواقد غاز، براد بلا باب، أحذية أطفال، أحذية برقبة من قياسات وأشكال مختلفة، خـوذات جنود، دميـة مبتورة منـزوع شعر رأسهـا، شاه كانت تجـز ما يشبه العشب، مربوطة بحبل بيد صاحبها الصلبة المتيبسة. تجبـرك قوة جاذبـة أكثر سلطـة من الرعـب نفسه؛ لكـي تتوقف وتفحصهم جثة جثة، الأجساد الملقاة على الأرصفة، وفي النواحي ومنعطفـات الطريق، وفي تقاطعـات المدينة الشبـح، التي دكتها القنابـل وأجهزت عليها، والطاغية؛ طفـل صغير، حفر الفوسفور في وجهـه أخاديد، جفناه شبـه مصهورين، يتدليـان كأنهما قصتا شعـر، عسكريان متفحمان بفعل سلاح تحركه أشعة الليزر، يمكن التعرف عليهمـا من خلال حزام الخرطوش وخوذتيهما عديمتي

الفائـدة؛ جذع جثـة مبتورة الأطـراف مكسوة بالكامـل بالذباب. يعاتبـك حدس لا زال مضطربا لكنـه حثيث؛ ليدفعك أن تتوقف هنا وتدع طريقك.

هل ياتـرى يرغب في أن يجنبك الانحدار المؤلم إلى الدرجات السفلـى من الجحيم؛ حيـث يتدفق نهر كبريتي يغلـي، سكانه فقدوا عيونهـم، بينما تلتهم حيات ضخمة السالف ذكرهم. يتملكك الحزن ويرسـخ فـي أعماقـك، يوعز بظهـور وشيـك لأخيلة أكثـر قربًا وإيلامًا، نبش القبور والجروح الغائرة والندبات المستحيلة. تتقدم مرتعشًـا، علـى الرغم من قيظ الضباب ونتانـة الجثث، نحو شبح سيدة منبطحة علـى وجهها، سيدة أنيقة تتلفـح بمعطف فرو أنيق، على رأسها قبعة من طراز الثلاثينيات.

تطوقهـا هالة من النور الوضـاء ينتشر حولها من دون غيرها، فيميزها الناظر عما حولها للوهلة الأولى، تبدو كأنها ترسل رسالة خصتـك أنت وحدك بها. يجمد هاجس ما قـواك، يستبعد النصائح والتحذيـرات، يرسخ في نفسك بحتمية الافتقـار إلى الإيمان. من هي؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تجرؤ على أن تدير الجثة لتكشف عن وجهها؟

أتخشـى ألا تعرفها بعد وقت طويل، علـى الرغم من صورها التـي تحتفـظ بهـا؟ أم تخشـى أن تعمـي بصـرك بجمـال محياها

واستدارة وجهها الممتلئ الذي أصبح كاللهب الحي؟ تحبس أنفاسك وتنحنـــي فوق حقيبة يدها التي ما زالــت تقبض عليها، وتتحقق من دقــة الذكرى الأليمة، بعيـدًا عن الرعب، جميــع هداياكم كما هي لــم تمس. أهي أم أشخاص بعينهم، لهــم مفاصل، أعصاب، دم، عمود فقري وعظام، أم هي رمــز وتجسد لجميع الأمهات اللاتي تفاجئـن بالقصف بينما يقمن بالتسوق فــي برشلونة، أو البصرة أو بغداد؟ ألم تتآمر على طيفها هذه الحقبة من الزمان؟ فأية شرارة تلك التــي غذت الكابوس الليلي وأعــادت الرؤيا الغليظة التي وجب أن تبقى دفينة في كثافة عمق الأرض؟

تغمضـ عينيـك، مدعومًا بالسكينـة والهدوء، تتجـول بخفة، بمحاذاة الأرض، فـي الطرق، المدافـن، والأضرحة. تكتلات المقابر التـي تجولت بها قبل سنوات مترسخـة في جسدك، خلال إقامة تشبعت وأثمرت تدريجيًا، لم تنسها ولن تنساها أبدا.

حيـن كنت متلحفًـا بغطاء متهرئ، مـا بين قبـر أجوف لرجل فارق الحياة منذ نصف قـرن مضى، وفراش من القش يرقد عليه رجـل عجـوز، عشت هنـاك جذبتـك وتخيلت مملكـة الأطياف، تحـررت من هيئتـك المادية خـلال الحلم، واتحـدت لوقت عابر بنخبـة الأرواح المارقـة المقيمين فـي «القرافـة»، يتلاشون في قبورها ونواويسهـا السرية كلما أشرق شعاع يـوم جديد. تملكتك الخفة، تنزلـق بخفة ونعومة من دون جهد فوق الدهاليز الصغيرة الوحيدة، القباب المضلعة، والمآذن الرشيقة، تنبش أخيلة جولتك النهارية وذكرياتهـا؛ طرق يكسوها التـراب، واجهات متهالكة، شجيرات هزيلـة، مخلفات، أنوال بدائية، أبـراج حمام، حدائق ومناطـق للسكن. يكسو نـور القمر الآن المساكـن المطلية باللون الأخضر والترابي، مزينـة الأفنية بالزهور والآيات القرآنية على الموزاييك، أوعية المياه وسعفات النخيل موضوعة فوق القبور.

انطفأت علامات الحياة الزائلة بالمدينة في المصابيح، القناديل ومصابيح الغاز. آوت إلى منازلها عائلات، وقطعان، طيور الحظيرة؛ لينعموا بالسلام وطراوته بعد سخونة الشمس والتراب وعناء اليوم. إنما هى ساعة السبات العميق، حين يخرج الموتى من أضرحتهم، ويتواصلون مع النائمين خلال خيالات التهجد الليلي.

يتحسس علية القوم الذين علقت في المقابر صورهم، يرتدون فيها المعاطف والطرابيش الحمراء، غفلة الحراس للاستراحة، فيشاركون بغم ظاهر في هذا المشهد الذي يغط في الانهيار والدمار المحتوم.

أتراك تحلق الساعة، متمسكًا بجناحي «إسرافيل» المهولين، مثل جناحي ديك السماء الأولى ورأسه، التي وصفها مؤرخو المعراج بأنها تصل إلى ما هو دون عرش الله؟

أم أنك تحيا نشوة الخفة، والدعوة الموحية بالخطر وبهجة انعدام الوزن؟ لا تسهر نفس واحدة للاستماع إلى نشرات الأخبار عن الحرب النظيفة، وآثار الأسلحة الذكية في مهماتها الجراحية بغرض التهدئة، إلا أن آثار الكرب المنتشرة تثير قلق المواطنين بمشاهد الموت والخراب.

مشاهد يكسوها الرماد والرقائق المشتعلة. هل هذه المرافق هي ما تزعج (أحمد) في حلمه بينما يحتضن زوجته، ويتنفس أنفاسًا متقطعة، لا يدرك وجودك الماكر بعد طول غياب؟ استنزافك لخصوصيته جعلك تتخيل سماع صوت المقرئ، يرتل السورة السابعة والستين في القرآن، في إحدى سرادقات الشوارع أعدها أقارب المتوفى لإحياء ذكرى الأربعين. تطير رابعة والبسطامي في سرب من منحدر الجبل شبه العمودي، وأبراج القلعة وقبابها. أتراك تحلم مثلهما، أم أنك تستمتع بنشوة النعيم بعد أن تطهرت وصرت شفيفًا؟ هل تجاوزت حدود الزمان والمكان بفضل الخيال، فتخلط ما بين الموجود وما يتم استدعاؤه بخفة من دون أن تلمس الأرض؟ وتشهد جنازة البسطامي في اللحظة التي يستمع فيها الحشد الذي تعلوه سحابة الطيور الخضراء إلى آذان الصلاة ينادي بها المؤذن، وفي هذه اللحظة الإلهية، يرفع الميت الراقد يده من الكفن مشيرًا إلى السماء، وفي اللحظة عينها، تطوق الظلال الشفافة قبر عاشقة الحب الإلهي، فتلمس أركانه بأطراف أصابعها، التي تمسح بها برقة على وجهها ثم تجثو إلى جانب القبر، تتحسس كساءه، وتهمهم بصلاة خليط ما بين الابتهال والتوسل.

وماذا بشأن المفارقات التاريخية وتعارض الخطط، هل ترجع إلى أداء الموتى خلال الأربعينية أم أنها امتداد لشمولية الظلال؟

تنتشـــي ويغمــرك النعيم لرؤية جمــال المقابر وسكونهــا، بواباتها الحديديــة، الدرابزينات، المسلات الجنائزيــة، البيوت الصغيرة تزينهــا رسومات الكعبــة والحج، وآثــار كفـوف مطبوعة بدماء خــروف الضحية على الجدران. لقد عــادت إلى جوارك، وبينما تشير إلى جسدك الراقد بباريــس خلال لحظات الهجرة المذكورة قبل قليل، تهمس وقد احتوت فــي إيماءة واحدة الكائنات والأشياء الحاضــرة في نصــك، عمياء هى العين التي لا تـرى ما الذي أنت بحارس له:

أخذ الصالون الصغير بمقاعده الوثيرة يمتلئ شيئًا فشيئًا في شكل نصف حلقة أمام التليفزيون، بجمهور من زبائن البار أو السائحين الجائلين، قبيل إذاعة الأخبار المتعلقة بوقف إطلاق النار، والنهاية الوشيكة للقتال.

توجد بين أناس غرباء عنك، محروم من قربها الحميم، ومن الرحالة السماويين الذين اعتادوا الالتفاف حولكما دائمًا.

تتابع الفواصل الإعلانية بتراتب، وفي النهاية تختتم بلحن البرنامج ومشاهده، ثم تظهر على الشاشة السيدة حاملة المظلة، ترتدي ثوبًا من الأورجانزا بنفسجيّ اللون، موشي بالدانتيلا وشرائط كبيرة، وتضع عقودًا زجاجية، وحليًّا أخرى، وقلادات، جوارب بيضاء وحذاء بكعب عال مزين من ناحية مشط القدم بأحجار وألماسات صناعية. وبعد أن أشارت بالتحية ناحية اليمين واليسار، جلست عند رأس الطاولة مثلثة الشكل، تصطف عليها الميكروفونات، ثم بدأت بتقديم المدعوين نجوم الجلسة، وهم من الأسماء اللامعة في الحياة الفكرية والأدبية، تمت دعوتهم لمشاهدة الظروف الراهنة على الهواء من خلال القمر الصناعي، ثم التعليق على الأحداث.

فيلسوف شعره طويل مموج يشبه جورج صاند.

عالم نفساني له العديد من الأعمال المرجعية الأساسية في التخصص.

عالم في السياسة، متخصص في دراسات الكرملين، ثم تحول للتخصص في الدراسات الإسلامية.

ويا لها من مفاجأة.

هذا هو الشاب ذو الوجه الضامر، متدثرًا في جلباب رث، يضع طاقية عفريت، يدخن نارجيلة «الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند باب الحمام.

بعد تتابع عدة مشاهد يظهر فيها جنود مبتسمون ومهندمون، مصحوبة بمواد توضيحية بأسهم تتحرك وأهداف تشير إليها أضواء تومض، وصور ناعمة لقذائف باليستية، دمار يصيب نواحي بيضاء نائيةً مجهولةً، تعود السيدة ذات المظلة وتعطي الكلمة للمدعوين.

جورج صاند: لا توجد حروب جميلة، لكن هناك حروبا عادلة، هذه بحث عنها أصحابها بكل عند وجهالة! حشدهم البدائي، وغرامهم بالطاغوت أخرجهم من التاريخ، كأنهم بقايا منصهرة بلا شكل أو هوية.

المحلل النفساني: ترتكز هويتهم على شبح سري يشكل أصلاً رمزيًّا، نشيط بقدر ما هو كامن في اللاوعي. هو الحلم بالأمة الواحدة – الأم، اللغة، الدين، الأرض – متماثلة ونقية من دون تدخل «الآخر»، يفترض في نهاية الأمر غياب الأب وتسامي زنى المحارم.

عالم السياسة: ولم ينته الأمر بعد! من يضمن لنا أنه في المستقبل لن يظهر عبقري آخر؛ يخصص موارده البترولية أو ما شابه ليضرب بضربته في المجال الكيميائي، علم الجراثيم والأسلحة النووية، قبل أن يغزو جيرانه، ويهدد الغرب بالإرهاب، ووفقًا لوسائله، بالدمار الشامل أيضًا؟ على الرغم من أن هذا الافتراض غير محتمل على المدى القريب، فليس من الخيال أن يقع على المدى البعيد.

يظهر الشاب بجلبابه وطاقية العفريت

يـــا عبـــــــــــــاد اللـــــــــه، غيثوني

ذهول، سعال، أصوات احتجاجات، سباب؛ وإذا كان مجرد معتوه، فما هذا الهراء الذي يتلفظ به بينما يسير؟ ألا يوجد من يترجم هذه الرطانة؟ لماذا لم يحضروا شخصًا أكثر لياقة؟ أم أن مواطنيه جميعهم، لا يقلون عنه جلافةً؟

يضع جورج صاند والمحلل النفسي وعالم السياسة نظريات جديدة بشأن عقدة أوديب، الافتقار إلى النضج، التحجر، مرض جنون العظمة، ونرجسية المنومين مغنطيسيًّا، لكن لا أحد يهتم: يتحرك الجمهور من القول للفعل، ويبدأ في قذف الطماطم والبيض الفاسد صوب الشاب «المورو» العربي صاحب الجلباب.

تجذب السيدة ذات المظلة من حقيبة يدها مبسم سيجار من العنبر، وتضع فيه سيجارة فليبينية وتشعلها بولاعة من طراز «رونسون»، ثم تزفر سحابة دخانية لتسترخي وسط هذا الصخب العام.

على ما يبدو، فلم تعد تظهر على الشاشة، فتسير وتقف إلى جوارك تمور غضبًا للإهانة التي لحقت بكرامتها.

مع التهاني، تقول لك: ألا تشعر بالخجل من ابتعادك عن هذا الإجماع الخلقي البديع الذي يتأسس عليه حاليًا النظام الدولي الجديد؟

-28-

وماذا عن خلق النص الروائي، أليس مثله مثل الأربعينية؟

ألا يضطر الكاتب إلى الانعزال عن العالم في المرحلة المبهمة التي تسبق تكوينها؟ ألا يضطر إلى أن يحيط نفسه ومادته الروائية الخام بحبل صحي ذي حواجز للحماية؟ ألا تتطلب قدرة الكتابة التي تسبب العدوى - ويكون ضحيتها الأولى الكاتب نفسه قبل أن يتحول إلى آداة - أن ينسحب إلى عزلة شبيهة بعزلة نزلاء المستشفى، أو الرهبان الملبوسين بحضور الرب؟

تتطلب مغامرته الحمقاء جمع عناصر نصه وتنظيمها في إطار غير محدد ومبهم، وأن ينشئ بين علاقاتها خيطًا مثل خيوط العنكبوت، ينسج شبكة من المعاني تتجاوز الزمان والمكان، تجاهل قوانين المعقولية، نبذ الأفكار البالية عن الشخوص والحبكة، وإلغاء الحدود ما بين الواقع والحلم، قلقلة القارئ عن طريق تراكب مستويات التأويل وشهادات الأصوات الموثقة، استلاب ملكية الأحداث التاريخية وإشعالها وقودًا لخدمة المشروع «النص»، الحياة والموت والبعث لك وللآخرين.

ألا يتطلب تكثيف كل ذلك في موقع ذهني تحضيره بعناية؛ ليحتضن المرض المعدي ويحول دون انتشاره قبل الأوان؟

فمثل جميع الأوبئة، فإن الوباء الذي أزهر في خلاصة نبت الروائي، يبحث بعد الأربعينية عن امتداده الطبيعي في شكل القارئ المتلقي لدعواه المعدية الخصبة. ومنذ أن يتولى هذا مقاليد مخاطر المغامرة، يعيش هو نفسه الأربعينية، معزولاً عن العالم في فقاعته الخاصة، منهمكًا في متعة العدوى الملوثة. أربعينية الكاتب، أربعينية القارئ، أربعينية الكتاب، لا غنى عنها جميعًا في الأثر الفاعل لتحفيز وتحويل الكلمة المكتوبة. وعين الخيال هذي في محيط الإيمان بالآخرة، ألم تصطبغ بعلمانية ما، على الأرجح مردها الروائيون أنفسهم، محط إعجابها.

-29-

نصحتـه زوجتـه أن يستقل الحافلة رقـم (93) عند بورت سان مارتيـن، قالت لـه: ستتـركك عند المـكان بالضبـط، لكن ولعه الشديد بالمتـرو كان أكثر قوة، من دون أن يعير التفاتًا لمضايقات تغيير الاتجاهات. غاصـ في النفق الأرضي الحضري من الفتحة الأقرب، اكتشـف بسعادة أن الباب الأتوماتيكي الصغير المتحرك آليًا انفتـح أمامه من دون الحاجـة إلى بطاقة، كأنهـا دفعت مسبقًا باحترام من مجهول خارق.

بدا لـه الحدث بشـرى للخير، وبينمـا يقطع الرحلـة في عربة مزدحمـة، احتضن حقيبـة أوراقه وسجلاتـه؛ ليبرهن على صدقه ونيتـه السليمة خـلال استجـواب المحققين لـه. لم تنطـوِ الأسئلة الثلاثة المطبوعة على الآلة الكاتبة على صعوبات كثيرة، لكن بعد ساعـات من تلقي الرسالة الغامضة، عثر على سؤال رابع مكتوب بحبـر سري ثـم استبانت حروفه: «ما نوع الكتـاب الذي تقومون بكتابته، وما الدور الذي نلعبه فيـه؟». كان من المستحيل الإجابة عـن السؤال بشكل كتابي، فقـرر أن يلجأ إلى خيار كان مقررًا في صحيفة الشروط، ألا هو تقديم عرض شفهيّ للموضوع في مكتب محكمـة الحسابـات. ولكيلا يستسلـم للتثبيط ويحافـظ على رباطة جأشه، اعتبر الأمر بمثابة شرك ينصبه له «منكر»، كخطة لاختبار يقظة ذهنه وسخريته الفطرية.

وكما شـرح لها قبل رحلة العبـور ، فإن تجربتـه القصيرة مع منكر تكذب ، بشكل قاطع ، ما يشاع عنه من أساطير بشأن صرامته وخططه السادية المزعومة.

(لم تكن الأمور مع زوجته بمثل ذاك الوضوح)

تقـع المحكمة بالقـرب من المحطـة، توجه إليها سيـرًا منبسط الأساريـر ، ممسكًا بحقيبة الأوراق التـي تضم القرائن والوثائق ، هـدأ روعـه بفعل الأجـواء الطبيعية مـن حوله والمظهـر العادي للأشخاصـ الذيـن يقصدونه لسبـب أو لآخر . صعـد السلالم من دون أن يتـرك نفسـه للانبهار بعظمة الأعمـدة المنذرة التي تزين الواجهة، ولج القاعة الشاسعة، يحتشد بها الجمهور كالنمل، انتظر دوره في طابور أمـام نافذة الاستعلامات الصغيرة ، وتسلم بطاقة كارتونية صغيرة تشير إلى الطابق والممر ورقم مكتب الممتحنين ، وبطاقة أخرى ذات لون مختلف يظهر فيها رقمه المحدد. اصطحبه برقة مرشد لـه حاجبان ولحية شيطان ، من هـذا المكان المزدحم المزعج إلى الطوابق العليا ، وللوهلة الأولى تبدو مهجورة يسودها الصمت .

أشـار إلـى مقعد في طرف القاعـة؛ ليجلس فيـه وطلب منه أن ينتظـره هنـاك . وقـال: حينمـا يستعـدون سيبلغونـك . جلس بعد أن تمتـم بكلمـات الشكر ، واضعًـا محفظته فوق ركبتيـه، مستغلاً

الانتظـار ليستحضـر إجاباته بشـكل طبيعي. ولم يقلقـه الانتظار؛ علـم أن الممتحنيـن لـن يمنحوه وقتًـا إضافيًّـا، وفـي المقابل لن يقضيـا في الأمـر بسرعة على الرغم من المجهـود الذي يبذلونه. مـن وقت لآخـر، كان ينفتح بـاب في الردهة، ويطـل منه بشكل خاطف رأسـ امرأة للتأكد مـن وجوده، للحظة تلقـي عليه نظرة محايـدة وتختفي. وبطول وقـت الانتظار، نهضـ ليحرك ساقيه ويسير بضع خطـوات. ظل الممر مهجورًا، لكـن خلف الأبواب الصلبـة المصنوعة من خشب البلوط، سمعت حركات الموظفين، والمكالمـات التليفونية وصوت النقر على ماكينـات الكتابة. ومن أبـواب أخرى تـردد صدى صوت خافـت لأسئلة عبـر مكبرات الصـوت، تتقطعهـا شكوى وتأوهـات. تأكد من أن أحـدًا لا يراه وأرهف سمعه عنـد باب مزينة صفحته برسومـات لنساء ورجال عرايا، بفكي كلب، وأذن ماعز، وحوافر ثور، وصوف خراف؛ بالرغـم من بعدهم، كانـت تصل إليه أصـوات صرخات وأسى، ولفحات ريـاح مشئومة. وفي المكتب المجاور علقت لافتة بجميع اللغـات تحذر من أن هـذا المكتب مثل مكاتـب الجمرك، يضطلع بتسجيل جملة ذنوب الأرواح المعذبة وحفظها؛ ذلك حيث «يحبس التائبين البرد الزمهرير». إذا لم تخنه ذاكرته، ألا ينتمي هذا البيت إلى النشيد الواحد والثلاثين من «الكوميديا الإلهية»؟ وحين أوشك

علـــى مواربة البـــاب والتجسس على مـــا يحدث بالداخـــل، أجبره الصرير الصادر عن حركة المزلاج على التراجع والعودة سريعًا إلـــى المقعد الذي حدده له الدليل. وقفـــت أمامه سيدة معتلة المزاج تضع نظـــارة. قالت: رقمك. قدم إليها البطاقـــة وفتح الحقيبة على الفور ليظهر لها الشهادة الطبيـــة ونتائج التحليل. بإمكان حضرتك أن ترى أن معدل الإخراج وكثافته طبيعيين، ولا أثر لأي اختلال أو إصابـــة طفيليـــة. وبالمثل لا أثـــر لأي زلال، يكشف عن وجود خلل سرطاني أو التهاب ما بالغشاء المعوي المخاطي. تنحنح؛ فيما يتعلـــق بالسؤال السابق، فإنه لو سمحت لي باتباع ترتيب مختلف، فبعـــد أن فكـــرت كثيرًا واستدعيـــت ذكريات فصـــول الصيف التي قضيتها مع عائلتـــي، أستطيع الجزم بأنني مارســـت العادة السرية الأولى في ســـن الثانية عشرة، أي في عام 1943، ربما كان ذلك في شهـــر يوليو . . . إلا أن وجه الموظفة نافـــذ الصبر والصارم، جعله يكف عن عرض حديثه:

أعتقـــد أن الدكتـــور نكيـــر والدكتـــور منكر يفضـــلان أن أدون شهادتي بصفة شخصية.

فُتحـــت جميع أبـــواب الممر مـــن دون مقدمـــات، وبرزت من خلالها عشرات الرؤوس المتطابقة، بدت أصغر فأصغر طبقًا لبعد المسافة، مثل بهو المرايا في المهرجانات.

(أو مثل مشهد من فيلم « سيدة من شنغهاي» مثلما قالت زوجتك ، إلا أنك لم تشعر حين دخلت الحجرة لتلقي عليك التحية ، وقد قرأت الفقرة الأخيرة ، من خلف ظهرك).

يقومــون بفحصــك من قمة رأســك إلى إخمصــ قدميك ، بعين محقق ونظرة منتقدة.

صرخت الموظفــة؛ ومن أخبرك أن نكيرا ومنكرا يعملان هنا؟ على الرغــم من الأعداد الهائلة للمهاجرين التــي نستقبلها هنا لسوء الحــظ ، فإن قدراتها لم تتمكن قط من دواخل حدودنا! وفيما يتعلق ببيانــات سيادتك فهى لا تظهر في أي مــن أجهزة الكمبيوتر لدينا ، وليســ في إمكاننــا أن نتحمــل مسئولية ملفك ، بالرغــم من أصلك الكاثوليكي الرسولي الروحاني الأكيد. الأفضل أن تستقل الطائرة وتتجه مباشرة إلى القاهرة.

وفي المطار ، ستجد من يهتم بمتابعة أوراقك. استقل «تاكسي» علــى نفقتك ، وتوجــه إلى المقابــر الجنوبية: وستجدهمــا ليلاً بأحد الأضرحة أو في إحدى زوايا «مدينة الموتى».

تركت الأربعينيـة الخلقية للحرب أثرها علـى حياته، فطردت النـوم من عينيه بضـراوة، وقودت دورة مجـرى أيامه بالأخيلة الدمويـة وراء الأحـلام. تكثـف الصمت غيـر المعتاد فـي مدينة «الرجـال المقدسين السبعـة» بحسبه مرت الأيـام وتعاظم الوعي بالكارثـة، التـي ترسخت في نفوسـ السكان الذيـن كان يعبر بهم خلال زياراتـه المتقطعة إلى الميـدان. الجولـة العرضية للمشهد العتيـق للضوء جعلته يتشبـث بأمل الاستمراريـة الوجودية، التي اهتـزت بعنف وكانت محل اختبار من قبـل العدوان المنتشر الذي اتخذه هدفًا له.

في مرحلـة زمنية ما تركـز اهتمامه على «صـاروخ» لم يكن الشبـاب قد ازدراه بعد، ولـم يتركه في وضع صعب وقاس عندما تجذبـه بوصلة الرغبـة، بحث ووجد فـي ذاك الصاروخ، وجهة الشمال لجولاته وصولاته.

خفـة ظلـه وروح الدعابة اللتان يتمتـع بهما، وأيضًـا تواطؤه الماكـر بعيـدًا عن العرضـ اليومي فـي «الحلقـة» اختصرت في فكرته عن السعادة. وقف في الميدان، وسط بهجته، معجبًا بهيئته

وغطرسته، رأسه الحليق، مؤخرة عنقه المتينة، أسنانه الذهبية، طلاقة اللسان، استعراض القوة، ومتانة الفحل الانكشاري. تراجع كل هذا إلى الوراء، بعيدًا جدًّا إلى الوراء، مترجلاً بفعل خفة الزمن الذي يماثل هروب أيل سريع.

والآن لم يعد يلتقي بغير الأشباح، مثلها مثله انبثقت عن الضباب، وجوه تكسوها صرامة بالغة، مؤمنون مخلصون في انتظار نداء المؤذن، باعة يجلسون على عتبات البازارات المهجورة، عجائز وشباب ملتصقة أسماعهم بالمذياع. اختفى السائحون في الأسواق: الشرفات البانورامية لفندقي «جلاسيى» و«أوتيل دي فرانس» فارغة تمامًا.

تأمل بعمق رجلاً محكومًا عليه بالإعدام، الأرداف العامرة لسلة الجبال المكسوة بالثلج، تتلألأ ضياءً، تطل من خلف سماء صافية. حيا بإيماءة من رأسه السادة الجالسين بالمقهى، ثم بحث عن الاقتراب المطمئن من صوفي الحلقة الأخير «الشرقاوي». وجده في مكانه المعتاد، على سجادته إلى جوار الحمائم المروضة، وطواقيه المطرزة بقواقع الحاج، الجلباب المرتق البائس، ورأسه الأشعث كثيف الشعر، محيا عابس لكنه مشبع بعذوبة سرية. جلس إلى جواره من دون أن يستأذن منه، منتبهًا إلى ترتيل صلواته

والأدعيـة الحارة الصادقة للحب والرحمـة. هل هناك بين منطق الحـرب ومنطـق المـال إمكانية وإن كانـت طفيفة لهـذه الكلمات الأساسية ؟ تعرف إليه الشيخ الكهل فتوقف عن ابتهالاته ليقبله.

تسرب إلى جسده شعور بالأمان والصداقة، كأنه مسكن بعد ألم حاد وعصي. بدا أن هدوء «الشرقاوي» ولطفه ينتشران في الحلقة ويكسوان دائرة المشاهدين بجمال معنوي رقيق.

حيـن لمحهـا في هيئتهـا الشفافة، وسـط الحلقة، لـم يشعر بأية دهشـة، فقط السعـادة لمعاودة رؤيتها، في مدينـة، دون شك في ذلك. ارتدت قميصًـا بسيطًا وسروالاً وبدا عليهـا السكون، تمامًا مثلما كانـا ينتظران لحظة الخروج من القاعـة، منهمكة في قراءة «كيبيدو»، بين هـواة الموسيقى، من بورتوريكو والزنوج، على العشـب تنعكس عليه أشعة الشمس فـي «واشنطن اسكوير» بجوار الجامعة.

-31-

جلسا في حجرة المعيشـــة يعلقان على أحداث الحرب الأخيرة- غلفهمـا صمت غير معتـاد لمدينة بدت بعد الأخبـار السريعة كأنها خاضعة من تلقـاء نفسها لرعب حظر التجول، إلى أن رن الهاتف فجأة. رفعت زوجته السماعة وجعلتها لصيقة أذنها. قالت: لا بد أن المكالمة خارجيــة، فالصوت غريب جدًّا. جذب هو بدوره نسخته ذات الحواشــي (دانتي وأخــذ يقرأ بعد عدد مـن المرات لا حصر لها وصــف حلقة الجحيم التاسعة؛ محــاولاً استقراء توافقات جديدة بينهـا وبين «سقر» و« تارا» قصر الشيطان ومحل جيوشه بحسب النسخ الأولي من المعراج. قالت زوجته بعد برهة: نعم، إنه هنا. أعطتــه السماعة وهــى تغطيها بكفها وتقول: إنــه اتصال من مكتب السيديـن «نانيتــر» و«مونار»، لـم أفهمهما جيـدًّا، على أي حال إنهـا مكالمة من مصر. شعر بقلبه ينتفضـ، واحتاج لدقائق ليملك أعصابــه، تنحنـح قبل أن يقــرر الحديث. رد صــوت نسائي حاد وصارخ: أهلاً، دقيقة مــن فضلك، لا تذهب. مضت برهة زمنية كأنهـا بلا نهاية يصاحبها صوت احتكاك معدني، وصرير وفقرات من عبـارات باللغتين العربيــة والإنجليزية. يتـردد الصوت بين لحظة وأخرى، لا تغلق الخط، نحن نبحث عن صاحب الاتصال. وينقطع الصوت من جديد. حبسـ أنفاسه وواصل الترقب، اعتقد

أنــه يسمع صــوت انفجــارات غاضبة مبعثهــا الريــاح، أصوات مبتهلــة، تأوهات بشرية، انفجارات هائلــة لمحركات. لاحظ؛ أنه على الرغــم من ابتعاد صــوت عاملة السنتــرال شيئًــا فشيئًا، فإن أصوات الضجيج والصرخات تحتدم وتكتسب قربًا يثير القلق. بدا كأن السماء تمطــر ألسنة من اللهب، وأن الرمال تشتعل مثل مواد الحريــق، هل كانــت عاملة السنترال تعبر عــن نفسها بهذا الشكل؟ أو أنهــم أوصلوه عن طريق الخطأ بأفران عالية وحاملات للأثقال فــي قلب مصنع للصلب؟ أو أن فضاء يوم القيامة منتصب برافعات للهدم؟ صرخ: يا آنسة. لكنه لم يستقبل سوى أصوات هائلة صادرة عن المطــارق والمثاقب الآلية تدك الأنقاضــ. وهذه الآيات التي وصلت إلى مسامعه، هل صـــدرت عن أجساد مدفونة عاجزة عن نفسها، وسط الغبــار وقعقعة الماكينــات الضروس؟ ضاع البلاغ الآلي وسط هذا الخليط المفــزع من العواء والتوسلات والنحيب. ما الذي يجب فعله؟ قطع الاتصال؟ ويواجه بعدها خطر إهانته لهيبة من وكرامته يختبرونه فيتحولون ضده؟

فلربما يسعيان إلى إخضاعه لهذا الامتحان حتى يتحققا من مدى صبره واحترامه لمكانتيهما.

بــددت شكوكه قهقهة عالية تردد صداها، كأنه صادر من كهف أو نفــق عميق. من القادر أن يضحك، علــى هذا النحو، سواهما؟

تأكد من أنهما في الطرف الآخر من الخط، جعله هذا يشعر بحنو عميق. تساءل في سعادة: من منهما سيبدأ في السؤال؟ إلا أن المحادثة انقطعت من دون مقدمات. مكث لبضع ثوان، أسيرًا للإحباط، ثم صرخ بكل ما أوتى من قوة: يا آنسة، لو سمحت، لقد انقطع الاتصال، هل تسمعيني؟ بيد أنه لم يسمع سوى صوت المجيب الآلي، الذي أخذ يردد بالعربية من دون توقف: بسبب انشغال جميع الخطوط نأسف لعدم استقبال مكالمتك، الرجاء الاتصال في وقت لاحق.

انحرف عن الطريق المستقيم الذي تخلص فيه من نعليه؛ ليصل إلى الأفـلاك المضيئة التي وصفها « ابن عربــي» ، تخيل أنه ولج داخل مشهد لأرض سفلية، بـؤر مكسوة بنباتات متشابكة معروفة في بلاده باسم « الجندرة» . لمح عن يمينه في مجال السماء الأولى مـلاكًا نصفه الأعلــى ثلج والسفلى نــار ، يدعو فــي أناشيده الخلق كافة، ســواء كانت أجسادهم رقيقة أو بدينة ، ليصهر عطف قلوبهم في جسم واحد ، مثلما في جسده؛ حيث يتحد الثلج بالنار بالرغم من طبيعتهمــا المتناقضة. أخذ يحصي العدد القليــل من المسافرين إلى الطريق المستقيم ، يبتعــدون شيئًا فشيئًا نحو صراط النور: عرض عليهم أحدهم أكوابًا من العسل والخمر واللبن لتروي ظمأهم ، غير أنهــم اقتداءً بالنبي ، تخيـروا اللبن الحليب بامتيــاز . إلا أن عقبات الطريق المتموج الوعر ، تحيط بها أسوار الشوك غارقة في ظلام اصطناعــي ، كانت تجبرهــم على المضي قدمًا بحــذر بالغ ، خشية السقوط أو الانغماس في إحدى الآبار الجانبية ، التي تعج بالثعابين والحشرات .

بينمــا تابعت هى فريق الحجاج إلــى درب النور ، فأومأت إليه بإشارة أن يعود أدراجــه . بيد أنه ، لسوء الحظ ، لم تطاوعه قدماه مثلما فــي رؤيا السائريــن «لابن عربي» في «سَلــي» . حينئذ لمح

السيدة ذات المظلة، ترتدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشى بالدانتيلا والشرائط الكبيرة، تتحلى بعقود من الخرز، وميداليات، وأحجار كريمة، وجوارب بيضاء، وحذاء ذي كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة.

كانت تدخن سيجارة مثبتة في مبسم، تحرك مروحتها بغضب، كأنها مختنقة من الحر القائظ.

Bonjour l'ami, ne soyez pas trop pressé! La route est trés longue et fatigante. Vous ne voulez pas boire un verre avec moi?[5]

(أتظهر مرة أخرى هنا؟ ألم يتركها بصحبة المتخصصين في دراسات الإسلام خلال الفقرة التليفزيونية؟)

Hep jeune homme! Si me je permets de vous apeler comme ca en depit du fait que vous n'ayez plus vingt ans c'est parce que vous conservez le charm et l'espirt de la jeunesse, sa seduction!

J'aimerais pouvoir parler avec vous dans un

(5) لا داعي للاستعجال، فالطريق طويل ومرهق، ألا تريد أن تشرب كأسا معي؟ (المترجمة)

endroit plus intime ...[6]

تناسبت عيناها الجاحظتان الزرقاء اللون، المحاطتان بحاجبين اصطناعيين وتجاعيد غائرة مع فمها الشره النهم، وأيضًا طرف لسانها المتعرج وخلجات امرأة وقحة داهمتها السنون على حين غرة.

Je connais un motel pres d'ici.

Chambres tout confort, boissons, lumiere indirecte, metals aquatique, videos porno...[7]

وغمزته بعينها بحركة تشبه الكاميرا بين لقطة وأخرى.

Venez, Je vous prends par le bras! Il n'ya rien de meilleur au monde qu' une bonne partie de Jambes en l'aire avec une experte comme moi![8]

ماذا عن هيئة وجهها الشبيهة بالعرائس المتحركة، هل ستمتد؟ أبعد وجهها عنه بصفعة من يده، واستيقظ في هذه اللحظة عينها.

---

(6) ها.. أيها الشاب اسمح لي أن أناديك هكذا رغم أنك لم تعد في العشرين من عمرك، لأنك محتفظ بروح الشباب وإغوائه! (المترجمة)

(7) أعرف فندقا صغيرا بالقرب من هنا؛ حجرات مريحة ومشروبات وإضاءة خافتة، ومرتبة مائية وفيديوهات إباحية. (المترجمة)

(8) تعال، سآخذك من ذراعك! فلا شيء أفضل في العالم من جولة ترفع فيها ساقيك مع خبيرة مثلي. (المترجمة)

كنت في منزلك بباريس، ترقد بجانب زوجتك، منهمكًا في الكتاب الذي أنت بصدد تأليفه، وفيما أنت في غفوة، ظهر لك شاب متين البنية طويل، صدره قوي عريض، أعضاؤه مشدودة رشيقة. يلمع جلده بوميض فوسفوري، فأدركت حين رأيت رقته وخفته، أنه الشخص نفسه الذي التقيت به في «الحمام». قال: انهض، ضع ملابسك، واتبعني. أطعت أمره - متعمدًا أن تطأ الأرض بخفة، وتبعته إلى المكتب. هناك، أشار الشاب المجهول بإصبعه إلى الطاولة التي ستعمل عليها، وأمرك أن تجلس. لمحت بين الملفات رزم الأوراق الهولندية الفاخرة ريشة شفافة، طويلة وعريضة، تضاهي في طولها مسيرة ليلة كاملة على الأقل. أمره: امسك بها وابدأ في الكتابة من دون توقف حين آمرك بذلك. أطعته، يملؤك الرعب والإجلال، وبدأ يملي عليك بصوت ثابت، محددًا النقاط، الفصلات، الأقواس، الشرطتين، علامات الاستفهام والفواصل البيضاء، والـ32 فصلاً التي تشكل هذا الكتاب حتى هذه اللحظة.

كان الفتى يرتفع في المكان، ويقترب منك بالسرعة نفسها التي ينطلق بها من الأرض للهواء، متكئًا على بساط غير مرئي. على الرغم من استغراقك في مهمة الكتابة، فقد لاحظت جسده شفيفًا

فريدًا: فكنت قادرًا على رؤية قلبه المضيء، ونخاع عظامه، مثل الخيط الأبيض داخل مقبض من الكريستال. حتى إنك خمنت أفكاره - مثلما قرأ هو أفكارك - إلى الدرجة التي كنت تسبق فيها ما يمليك، فتستبق الجملة التي يوشك أن يمليها عليك. كانت المهمة شاقة، لكنك لم تشعر بأي تعب. كان دنوه منك والشذى المنبعث منه يغرسان في نفسك إحساسًا بالرقة، النداوة والأمان.

ظللت طوال الليل تؤلف الكتاب في حالة مبهجة ومتأججة في الوقت نفسه. وحين شقشق الفجر، حين أضفى شعاع الفجر بصيصه على الأسقف الأردوازية، ودعك رسولك بإيماءة من رأسه وتبخر في الهواء مثل إحدى شخصيات شهرزاد في مخادع الخليفة العباسي.

رجعت إلى غرفتك فوجدت زوجتك نائمة في وضع جنيني، غير أنها استيقظت حين تسللت إلى جوارها، وسألتك عن مبعث تهيجك واغتباطك. فحكيت لها ما جرى. لم تصدق ما سمعته منك، ونصحتك أن ترقد وتستريح لبضع ساعات حتى تعوض سهرك. لكنك رغبت في الاتصال بالصديق الذي يكتب نصوصك على الآلة الكاتبة، وتسلم له مخطوطك الذي أملاه عليك الملاك.

صاحت: هل أنت مجنون؟ سيعتبرك معتوهًا ويضحك منك! من سيعتقد أنك ألفت الكتاب خلال جلسة واحدة في ليلة وحسب؟ ألا

تعتقد أنه سيخبرك أن ما تحكيه ليس إلا ترهات وتخاريف؟ ولتثبت لها أنك لم تكن تحت تأثير حلم، ذهبت إلى مكتبك وأحضرت الدليل لتريها إياه. حينئذ فقط وقعت في حيرة، مثل التي تملكت ابن عربي حسب اعترافه، حين اكتشفت اختفاء الريشة المتألقة وبقاء الـ32 فصلاً مكتوبة على الماكينة على حالها.

أما ما قمت بإضافته فلم يكن غير مواءمة نصية من كتاب «المعراج» الذي أمر بترجمته الملك ألفونسو العاشر الحكيم، الذي استخدمه دانتي ليؤلف كتاب «الكوميديا الإلهية».

بعد ذلك ، بعد فظاعة ما حدث ، أخذ يبحث شاخصًا إلى الماضي ، بمفرده في البداية ثم بصحبة زوجته ، يرصد العلامات المشيرة إلى وداع وشيك وبوادر الهجرة. يتذكرها بينما؛ هي جالسة إلى جوار الطاولـة المنخفضة في المكتب القديم ، وقـد ارتسمت على وجهها الابتسامـة الواثقة نفسهـا في الصـورة التي يتأملهـا ، وهي تدخن سجائر «الجاولويسيس بلوز» ، أو بينما تطفئ السيجارة بعناية في المرمدة الافتراضية.

كانـا يتحدثان عن كتاب «الكوميديا الإلهية» وعلاقته بالتصوف الإسلامـي. أخذت تقرأ - بينما هـى معلقة بحساب عكسي لا يرحم لبعضـ نبضات القلب القصيرة الهشة - «وهى لا تدري» - قرأت منتشية شعر « ابن عربي»:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة   فمرعًى لغزلان وديرًا لرهبان

وبيتًا لأصنـام وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّي توجهت   ركائبه فالحب ديني وإيمـاني

فـإذا كان غطاء الرحمة يشمل كل ما هـو مخلوق ، بما في ذلك الأحجـار الجمـاد نفسهـا- وهى جامعـة مثل غيرهـا- ويعظمون الوجـود ، ألم يمزق «ابـن عربى» حجب «دانتـى» وحدوده في

رؤيتــه لما وراء القبــور؟ كانت تنظر عبر النافــذة الموا ربة تتطلع إلــى الأسطــح الأردواز، وإلى خليــط السحب المتنوعــة الملونة بأشعة الشمس، تعتريها عاطفة لم يفسرها هو نفسه. على نحو جيد، منهمــكًا بشكل دائم في البعد الأدبي الصــرف لدردشتهما. انطلقت حينئذ تتحدث بهدوء عن عنف العالم. لم تقصد عنف الكوكب الذي يعيشــان عليه، بــل الكون الشاسع بلا حــدود؛ كواكب نارية تبعث أشعــة قاتلة، نجومــا ميتة وبــاردة، أجراما تبــث عناصر مشعة، تسبب إشعاعات ذات طاقة هائلة غير قابلة للتفسير، كتلة من السديم الحلزونى للمجرات، وثقوباً سوداء تشد جاذبيتها إلى قلب الأجرام السماوية القريبة. عنف هائل وحشي لا مثيل له ينتج عن نجوم بعيدة عــن مجراتنا الصغيــرة بملايين السنوات الضوئيــة، فتشعل جزءًا طفيفًــا من طاقتها في أثناء وجودها المؤقــت لتتلاشى إثر انفجار لا يمكن تخيل أبعاده، فتسبب صدمات وحشية، وفيضاً من الأشعات ذات قــوة ساحقــة، ومعدلات سرعات تسبــب الغثيان، وكوارث متواليــة في عالــم الضوضاء والغضــب، هذا العالــم المترسخ في الفوضى، الدعوى، الالتهام، اللقــاء الأعمى للقوى المتعارضة، كل مــا وصفــه «روخاس» في عملــه «لاثيليستينــا». أتذكر ذلك؟

توقفت عن الحديث. وجال في الهواء سؤال لم تستطع صياغته؛

أمــن الممكن أن توجد ذرة مــن الحب والطيبة في فلك لا حدود للإبــادة والرعب فيه؟ صمــت كلاهما، وأخذا يتأمــلان تشكيلات

السحب غريبة التكوين المتوعدة في كتلتها السوداء المحكمة. وأخيرًا، قالت بينما تترك مجلسها: سوف تمطر.

(أترى هل ترك لها « الدليل الروحي» لمولينوس، ثم دعاها إلى العشاء في اليوم التالي؟)

أجابت زوجته: لا، بل كان ذلك في اليوم نفسه. قضيتما الأمسية تراجعان الترجمات، وطلبت منها البقاء معنا. أذكر أنها كانت ترتدي كنزة صوفية، وبنطالاً جينزاً، والسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصورة.

هل كان في سلوكها وحديثها شيء ما يجذب الانتباه؟

بحثا واستحثا ذاكرتيهما بشأن تلك الليلة، والحديث مع المدعوين الآخرين، والإشارات الأدبية والسينمائية، من دون ملاحظة أن ثمة وجود غير مرئي كان يترصد لهما من الخلف، حاضرًا في المشهد، قبل أن يتملك جسدها ويكلل هامتها دائمًا بهالة الشباب الغض الدائم أمام أعين أصدقائها.

(لم يكن هناك ما يدعو إلى التنبؤ بهذه النهاية المباغتة، أو إلى الخطوة الوشيكة نحو عالم الخفة).

بينما تودعك طلبت منك كتابًا، وذهبت لتبحث عنه في الاستوديو.

(كانت زوجتك على حق: في ذلك الوقت أعرتها «الدليل» وقبلتها في وجنتيها أمام باب المصعد).

وتحررت أخيرًا من مضايقة السيدة ذات المظلة، فتتمكن من التجول ملء ذراعيك، فتطوف في الفضاءات السماوية الرحبة، وتتيقن من دقة ما جاء في نسختك من كتاب «المعراج» أو «الصعود».

ستسافر بمفردك مثلما اعتدت في الأرض، بعيدًا عن الجولات السياحية وحافلتها مكيفة الهواء، والخلفية الموسيقية والتعليقات المسجلة قبلاً، والمرشدين السياحيين الذين يتحدثون لغات عدة. مستغرقًا في قراءتك عن عالم الآخرة، تتوقف عن الحوم والارتفاع كأنك ريشة لتنهمك في تأمل الملائكة النوريين، الطيور ذات الخضرة العجيبة، والأنبياء جلوس على مقاعد مضيئة، ملفوفة رؤوسهم بأقمشة صافية رائقة، أرواح من نار، حدقات عيون تطرف سبعين ألف مرة في اليوم من خشية الله، أهداب طويلة باهرة وجميلة مثل قوس قزح، مؤذنون صوتهم عذب ينادون الأرواح المباركة إلى الله، فتهرع آلاف الخلق وتتقارب تبتهل التوحيد الإلهي من جميع الجهات. تلج إلى فيضهم تلمح جسرًا بريقًا أكثر رهافة من الشعرة أو من حد السيف، تعبره الأرواح البائسة وتحاول أن تتوازن، مخافة السقوط في هاوية جهنم. تقلب صفحات الكتاب محاولاً أن تتخيل الملائكة ذوات السبعين ألف

وجه، لكل وجه سبعون ألف عين، مثلها مثل المشاهدات المجهرية التي ستستقطب مواد متعددة، بانكساراتها الضوئية الرائعة، التأليه البصري، والجمال المحير، ستلمح ثلاث شخصيات مألوفة، يجلسون إلى طاولة دراسية مرفوعة على سقالة، فيبدون مثل الناجين من الغرق الذين احتموا بجزيرة مهجورة. تقترب منهم فتتأكد أنهم «جورج صاند»، وعالم السياسة، والمحلل النفساني، لايزالون منهمكين في مناقشاتهم النظرية، على الرغم من أنه لا أحد يحيط بهم أو يعير كلماتهم انتباهًا. وبدا هناك الشاب ذو الجلباب الرث هضيم الوجه، يضع طاقية العفريت، ويدخن نارجيلة «الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند بوابة «الحمام»، يقبض عليهم مع طاولتهم واضعًا إياها على صفحة يديه، ويبتسم ببشاشة طفل تملك عشًا للعصافير.

هل كان يحميهم من خطر ما؟ أم سينفخ فيهم ليذروهم مثل زغب النباتات؟ أم ترى سيستيقظ قريبًا في خصه الحقير في «رياض الزيتون» ويقص على حارس الحمام فحوى حلمه العجيب؟

هل ستتجلي في حلمه؟

سؤال يفزعك: من الحالم ومن المحلوم به؟

-36-

جـذب الثور من قرنيـه، وتعلق بأهداب الطائـرة، وطار إلى القاهـرة. كانت المسافة مثل حلم قصير، تمكن من خلاله من تأمل تفاهة العالم، ضئيلاً مثل حبة الخردل في كف اليد. وعند وصوله، وقـع كل شـيء مثلما تنبـأت موظفـة الحسابات. لمـح بين رجال الشرطـة والمحققين عند نقطة رقابـة المسافرين شاب الحمام تكلل هامتـه هالة من الضيـاء الرصين. أدرك أن الشـاب كان يخترق الأجساد مـن دون أن يلحق بها ضررًا، ومـن دون أن تشعر بها أنفسهـم. قرر أن يتبع خطواته ويحذو حذوه ويفعل مثله. وبمجرد أن لمسـ الآخر نعله مـن الأرض، يطأ هو مكانه فـي التو، يعبر الحواجـز، واحدًا تلو الآخر على النسـق نفسه، من دون أن يختم لـه أحدهم جـواز سفره، أو حتـى يلاحظ دخولـه. توقفت سيارة أجرة سوداء لامعة، مظهرها عظائي نهري حذر، تنتظر عند باب مغـادرة المسافرين وانطلقت حال ركبا فيهـا. عبرا بسرعة مدينة مهجـورة، تشبه المدن قبل الإفطار في شهر رمضان، فلم يصادفا سيـارات أخـرى أو أية إشـارات للمـرور، كان السائق يضحك ويصفـر ويصر على أسنانه، ويصـدر أصواتًا من حلقه، ويتنفس محدثًا ضجيجًا؛ كأنه ملبوس بأمل مرح وفوضوي.

أو كان يــدري إلى أين يسيــر بهما؟ لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم يشــر حتى إلــى نقطة مقصده، لكن هذا الحــوذي – فضل أن يطلق عليه هذا الاســم – كان يعرف طريقه جيدًا وبدا راضيًا عن المهمة التي يقوم بها، ومنغمسًا في جولته الليلية والاستمتاع بعنفها.

هل واجــه جسدًا خفيفًا من البــرزخ، أم كان تجليًّا من تجلياته؟ حــاول عبثًا أن يكتشف صورتــه في المرآة الكفيفــة التي تعكس ما في الخلــف، بيد أن العمامة التي اعتمرهــا جنبته نظرات الآخرين الفضولية. هل كان يمتلك موهبة الكلمة، أم فقط يقدر على إصدار هذا السجل من الأصوات الخام، التي يؤديها من تأثر لرؤيا مبهجة أو من نشوة الإيلاج؟

مضــت المركبــة تقطــع بنعومــة ملغــزة الطريق عنــد ضريح «قايتبــاي»، وعلــى اليسار منها جبــل «المقطــم» المقدس، تسير السيــارة بمحــاذاة الأبــواب والأســوار الخلفية للقلعــة، ثم تنحدر نحــو «باب القرافــة»، فتتوغل فيه، وتستقر فــي النهاية بـ«مدينة الموتــى». لم ينر ضوء القمر الآثار الشاهدة والنصب التذكارية، أو قبــاب الأضرحة المخططــة، أو الشوارع المغبــرة القريبة من مسجــد «الإمــام الشافعــي». لاحــظ أن الحوذي أخــذ يسرع في صيحاتــه، واللهــاث المتشنج حيــن انحرف جهة اليميــن ليخترق الطريق، الذي عبره من قبل في الحقيقة والحلم، نحو المدفن الذي

نــام فيه خلال إقامته السابقة. تعرف عليه على الرغم من الضباب الكثيف، فتلمس البوابة الحديدية التي يسكّرها الكهل بحرص.

كانت مفتوحة فدفعها ثم أغلقها خلفه. وهجره رسوله والحوذي، سمــع ضجيج السيــارة وهى تنطلــق وتبتعد عنه فــي سرية. تسلل بخطــوات هادئة صوب الخصــ الذي يأوي فيــه الحارس شيطانًا فــي قاع بئر. أتــرى هل اتخذ الكهــل سبل حيطتــه الفطرية بترك الباب مفتوحًــا أم أن المضيف أعد مفاجأة ما بالتواطؤ مع الحارس المشاغــب الشيطانــي؟. واصل سيــره إلى أن بلــغ السلم ومدخل الضريح، ثــم دفع الباب برفق متلمسًا يبحــث عن فراش الحارس إلى جوار بلاطة المدفن الصلبة. لا يزال العجوز في مكانه كما في السابق، تدلل على وجوده أنفاسه المتقطعة. استعد ليرقد إلى جواره حيــن سمع صوتًا جبارًا يأمره بغلق القبر. أطاع الأمر بسرعة فيما كان يحاول أن يحــدد وسط هذا الضباب الكثيف والصمت المطبق مصدر الميكروفون أو مكبــر الصوت الذي صدر عنه هذا النداء. وفجأة أضيئت شاشة تليفزيونية.

مستلقيًا في قبرك، مثل ميت.

(من أسبل جفنيك، وسد فتحتي أذنيك وتجويف أنفك بالقطن، وربط ساقيك وفكيك بشريط، وشبك يديك على صدرك ووجه جسدك ناحية اليمين في اتجاه القبلة؟)

تتأمل خيالات خراب ودمار: أسوار من أحجار سوداء، واجهات منهارة، ركام مختلط من أسلاك التليفون والكهرباء، حفر ضخمة من أثر القنابل، مداخن محطمة تطوقها أبخرة صفراء سامة. تدور الكاميرا بحركة بطيئة في شماتة، ووسط مشاهد النيران الشبيهة بيوم القيامة، والصخور الكبريتية، والآبار تلفظ ألسنة النار على خلفية شمس حارقة وسوداء، أشواط نهارية تظلم تدريجيًّا، وسحب كثيفة ومعتمة، أضواء قاطعة تنبعث من الأرض، ليل اصطناعي مخيف. هل تنفخ رياح عقيم، صلبة وقاسية مثل امرأة عاقر؟ سيقول الصوت: لا، هذه ليست رسومات «دوري» أو لوحات «بوسكو». لا تبحث في «أناشيد الجحيم» أو «المعراج»، يظهر نكير ومنكر يضحكان خلال التشويش الذي يعترض الشاشة.

انظـر . . انظر جيـدًا لما صنعـت أيديكم، فما الحاجـة إلى أن نكـرر ما اخترعتموه أنتم ؟ نيران، ملايين البؤر النارية من جميع الأحجـام والأشكال، ألسنة لهب متموجـة وحادة، فوهات بركان تصـدر الكبريت الأحمـر، مخلوقات منصهـرة، أجساد مشوهة، وأخـرى لأطفال ونسـاء يحترقون مثل القطـن المندوف، دوائر «دانتـي» التسعة، ودرجـات جهنم السبعة في «كتـاب المعراج» بتعدداتها المتنوعة جميعها حاضرة هنا. إلا أنكم قمتم بخلط الأبرياء مـع المذنبين فعاقبتـم الأوائل، وكللتـم رؤوس المذنبيـن بأكاليل الغار.

أمعن النظر في هذا التجمع الفخور لآباء القذائف الباليستية ذات الرؤوس الكيميائيـة والنووية، والقنابل عديمـة الضغط والإبادة العلمية المقننة، تأمل هؤلاء المصنعين والخبراء ومصممي الأسلحة الذكيـة والنظيفة، التي توجه بأشعة الليـزر والشاشات. هم وقادة الطائرات الذين يلقون قذائفهم، ويبذرون الموت في الأرض من دون مبالاة مثل «ربات القدر». سوف يتألمون من عذاب خاص يجهله مؤلفو الكتب التي تشبعت أنت بها . واحدة من هذه الطائرات غير المرئية التي لا يتمكن الرادار من رصدها، يصوبون ضرباتهم ناحية هدف طاهر، غير معروف وبعيد، بأمر من القيادة العليا من دون التنبه؛ أن الشحنة القاتلة تتوجه صوب منزلهم.

أجل صوب أسرهم العزيزة التي يحملون صورها في محافظهم، أو يلصقونها عند مربع أجهزة التحكم في الجهاز، هذه الوجوه العذبة الضاحكة لأولادهم وزوجاتهم. تأمل وجوههم التي سحقها الرعب مصحوبًا بيأس أطرافهم المتشنجة وعجزها، وأفواههم المفتوحة على نواح بلا طائل، قبل أن تسحقهم الأسلحة الجديدة الفتاكة وتفتتهم.

مشهد استغرق ثواني، ولكنها ثوان ممتدة بلا نهاية، وتتكرر تريليونات المرات إلى يوم الدين.

تتردد ضحكات منكر ونكير في القبة وتتلاحق في صدى الصوت، فيما يبث التليفزيون مشاهد يختلط فيها الرعب بالحنان والسكون، ثم يقولون إن العقاب القاسي سينال من الأصوليين وتقنيتهم العلمية.

انتهى الشريط، وابتلع الظلام المدفن. شعرت بالقلق والخوف من أن يتركاك من دون أن تخضع للفحص الإجباري، فرفعت صوتك لتسأل عما قررا أن يفعلا بك: لقد أتيت برغبتك لتعرفه، لتعرف مصيرك، ولتخرج نهائيًا من الأربعينية.

تضاء الشاشة مجددًا، وتقرأ الرسالة الموجهة إليك: هذه مجرد رؤية. نحن بانتظارك هنا حين تموت بالفعل. بينما تنفصل عن حلمك، تسمع إلى جانبك شخيرًا خافتًا محتملاً للشيخ الكهل.

انتهت الحرب وحل الشتات. أخذ يتابع من نافذة منزله قافلة الهاربين التعسة، فيما ألصق أنفه في الزجاج الذي كسته حدة أجواء الفصل بالضباب. في البداية بدت قافلة السيارات، الحافلات والسيارات الرياضية الصغيرة المحملة بكومات متاع وعائلات، ثم عربات تجرها الحيوانات، محمل عليها حقائب، وأطفال، وخراف، وفي النهاية؛ صف من النساء والرجال يرتجفون جميعهم من البرد، منهكين من طول المسيرة، شيوخ عاجزون ومرضى، أمهات يحملن أطفالهن على ظهورهن، على حافة الهلاك. وقفوا ينتحبون أو يقضون حاجتهم، أو يطلبون كسرة خبز، أو جرعات حساء من مواطنيهم، يبدون في حالة من الفوضى. سيارات ودراجات بخارية متعطلة، حيوانات نافقة، مراتب وأغطية متهرئة ملقاة في الطريق، وذلك خلال الهروب اليائس ناحية الجبال. حرمهم الرعب من القصف، وقمع الجيش الوحشي من التفكير بحكمة، فأضحوا مثل قطيع بائس مرتعب، أو خلية نحل مدهوسة ومتناثرة. فهذا الطفل يمسك بشقيقه الأصغر، وهذا الكهل يحمل على كتفيه الجسد الضامر العليل لزوجته، هل يعرفون جميعًا إلى أين يذهبون ومن سيستقبلهم؟ وهل سيسمح لهم حراس الحدود؟ أم سيدفعون بأعقاب أسلحتهم؟ هل سيضعونهم خلف الأسوار في أماكن موحشة؟ أم ترى سيعيدونه إلى أعدائهم

من دون هوادة؟ لم يبدُ أن أحدًا ما يعرف، أو حتى فكر في الأمر. هول الكارثة محق كل شيء، تركوا في العراء الخلاء البدائي لقصة قاسية متكررة؛ الرعب، وغريزة البقاء وحسب، هذا الضوء لحيوان مطارد يقبع في بؤبؤ العين، الشك والذهول لمن يقتل على يد جزار مجهول، أو خلال شعيرة ألفية للضحايا والنذور. جلس متكورًا على نفسه في مملكته الصغيرة يشهد هجرة الشعوب بكاملها، من دون قادة أو زعماء، يعبرون البحر الأحمر من دون النبي موسى المخلص، ولا أمل في أرض الميعاد عند نهاية هروبهم المرتكب الأهوج، أترى هل كانوا من الأكراد الناجين من مذابح حلبجة ودهوك والموصل؟ أم أنهم ببساطة ليسوا إلا مواطنين من بلاده، عبروا منذ اثنين وخمسين عامًا مضت من قريتهم القطالونية، وهم أشتات قذرون يضعون أثمالاً رثة بالية، يخلفون آثارًا من البراز والجثث؟ ترى هل يعرض التليفزيون صور ما يحدث في الوقت الحالي في أعقاب أربعين يومًا من القصف الجوي الجهنمي، أم أنه استدعاء لذكريات مدفونة في ذاكرته لشبح الحرب الأهلية؟

كان يشك، ولا يزال في شك.

حسنًا، من يكتب هذه الصفحة بحق؟ أهو الكاتب ستيني العمر منكبًا على طاولته، أم الطفل الغر البريء الذي شهد للمرة الأولى في حياته انهيار حلم ونهاية مباغتة لأمله.

-39-

قالــت له: هــل لاحظت ذلـك؟ إننا فــي نهايــة الأربعينية. يوم آخــر، ونص آخر وأنفصــل عنك، بعيدًا عن البــرزخ، لأتلاشى تمامًا إلــى الأبد في الخفية، إلى يوم البعــث العظيم. أخذت تتطلع لصورتــك بحــزن تتخللــه ابتسامة عابــرة ذائلة، مثلما فــي الأيام الخوالــي حين كانت تتــردد عليك فــي الأستوديو القديــم الخاص بك، ومعها ترجماتها فتتحدثان على ثربانتس، روخاس، دانتي، وابــن عربي. ومنحها لقاؤها غير المتوقع بك بعد عبورها مساعدة كبيرة؛ فعبء الأشياء التي لم تعبر عنها في العالم الشنيع ظل يتراكم بداخلهــا، كأنها حبر لا طائل منه في المحبــرة، يمنعها من الإفادة منه وضعها الحالي. فهل كان ذلك نتيجة عدم انفصالها الكامل عمّا هو محسوس، مثلما اعتقدت هــي؟ أم هي عين خيالك التي لم تقدر أن تتمثلها إلا في شكلها وهيأتها السابقين؟ وتعدد المفارقات الزمنية والهذيان والقفزات الزمكانية خلال فترات تجوالكم، هل هو نتاج الوجود الواقعــي؟ أم يخضع للقراءات المتعمقــة لـ «ابن عربي»؟ تعجز عن الرد اليقين، فاكتفيت بتأملها تطوقك الشكوك، فيما بقيت هــي أو خيالها بنظر ضال شاخص إلــى الأسطح وحجراتها، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة للاصفــرار، والأشباح البعيدة لناطحات سحاب «لاديفانس».

هـل حانت ساعة الوداع؟ رأيتها تنهض مـن مجلسها، وتسألك مجـددًا إذا كان الدخـان يزعجـك. قالـت: سيجـارة «جلوزبلو» أخيـرة. مددت إليها المطفأة الافتراضية، كما هي العادة، ومكثت مبهوتًا إلى جوار مكتبك المغطى بالأوراق والقصاصات.

هل كانت ترتدي كنزة صوفيـة وبنطالاً جينزا مثل ذاك المساء الـذي شاطرتكم فيه العشاء ولم ترها مجددًا؟ سمعتها: اكتب، اكتب عني ثانية. فاهتمامك واهتمـام من سيقرؤونك في المستقبل سوف يبقيني على قيد الحياة.

-40-

حــدث كل ذلك خلال فترة احتضــاري القصير. وحين انتهيت مــن الكتــاب نهضتُ مــن الفراش الذي رقــدتُ فيه مــن دون أن يلحــظ أحد، ارتديــت بذلتي الوحيدة التي حافظــت عليها، أحكمت عقــدة رباط العنق القديــم المنسي، واستقللت الحافلــة للذهاب إلى مقر المحكمــة. استعلمت من حارس الأمن الذي دلني بدوره على المصعد الذي حملني إلى الدور السابع؛ حيث يلتقي جميع المدعوين إلــى الأربعينيــة. كان المكان خاليًا حين وصلــت، ولكنني اتبعت نصيحة الساعــي، وطرقت الباب الصلب لمكتــب التحقيقات الذي عُلقت عليه لوحة معدنية مذهبة، نقش عليها اسما منكر ونكير.

انتــهت

المؤلف فى سطور:

خوان جويتيسولو (برشلونة، ١٩٣١)

أحد القامــات الأدبية الأشهر في الأدب الناطق بالإسبانية تنوع نتاجــه الأدبي ما بين الرواية والقصة وأدب الرحلات والدراسات النقديــة والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامــه بقضايــا كونية والتعدديــة الثقافية ورغبته الجــادة وعمله الحثيــث من أجل سبر أغوار عوالم مغايــرة والتعرف على الآخر معرفــة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثــل آراء النقاد ولجان التحكيم التــي تناولت أعماله وارتــأت التعددية والانخراط فــي الثقافات المتنوعة ليســ فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء بينها ودروبها، وبين الثقافــة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التــي تحل فيها الثقافة الإسلاميــة العربية ركنا لا يقبل النــزاع. بهــذا الشكل تطــل كتابــات جويتيسولو بسماتهــا الكونية السرديــة لتجمــع بين الشــرق والغــرب والأيديولوجيــات الدينية والفكريــة بأنواعهــا، وهو ما تتكئ عليه بنية روايــة «الأربعينية» (١٩٩١).

المترجمة في سطور:

د. عبير محمد عبد الحافظ

- أستاذ اللغة والأدب الإسباني بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة.
- درست الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة وجامعة كومبلوتنسي مدريد.
- لها العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية الدولية المحكمة بالعربية والإسبانية.
- أشرفت على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- أستاذ زائر بجامعة ثاراجوثا، وكاستيا لا مانشا، وأوتونوما وكومبلوتنسي مدريد.
- لها ترجمات متنوعة من أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية (روبرتو أرلت، وخوليو كورتاثار، وخوسيه ماريا ميرينو، خورخي مانريكي، وبدرو مير، وغيرهم).
- تشغل حاليا منصب مدير مركز الدراسات والثقافات الأيبروأمريكية بجامعة القاهرة.

التصحيح اللغوى: هبة الله محمد

الإشراف الفنى: حسن كامل



يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يوماً التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلةً روحية صوفية، ينطلق منها ليرصدها في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعداً إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج، يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"المراتب السبعة" لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مروراً بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومي، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والأسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيبيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث وغيرهم.

وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دوماً خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة، حيث المساجد والمقابر والأضرحة، واستشراف الأجواء السحرية الغامضة التي تعقب الأربعينية.

صورة الغلاف للكاتب خوان جويتيسولو

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح